دراسة نقدية لمزاعم " كورليس لامونت " 1902 – 1995 م)، الإلحادية

بحث مقدم من الدكتور/ سعيد محمد محمد السقا - الأستاذ المساعد للفلسفة المعاصرة بقسم العلوم الاجتماعية - كلية التربية - جامعة الإسكندرية

والقائم حالياً بأعمال عميد كلية التربية جامعة مرسى مطروح

المقدمة:

عندما أسس " كورليس لامونت Corliss Lamont " " الاتجاه الإنساني " المعاصر، اضطر منهجيًا لرفض أي تسلط ميتافيزيقي، قد يَحد من طموح الإنسان، أو يَغلّ قدراته الذاتية، وإمكاناته الهائلة، التي يثق بها " لامونت " كل الثقة من حيث كفايتها لتحديد مصير البشرية، وتقرير مستقبل أفضل للإنسانية، ومن أجل تحقيق الاتساق الفكري " للاتجاه الإنساني "، ومن منطلق الإعلاء من قيمة الإنسان وإمكاناته وقيمه الذاتية زعم " لامونت " بضرورة إلحاد البشرية، لكي تعتمد على إمكاناتها فقط، وترفض جميع الأفكار الميتافيزيقية. ومن جهة أخرى زعم " لامونت " تعارض نتائج العلم مع الميتافيزيقا، مما يؤكد ضرورة مواجهة ورفض أي معتقدات دينية لها دعائم ميتافيزيقية، وهذا قد يكون سبب انحراف " لامونت " عن الحياد العلمي، بالرغم من تذرعه بنتائج العلوم والنظريات العلمية؛ لأنه يرى أن العلم هو السبيل الأوحد لتحقيق أهداف البشرية وسعادتها، إضافة إلى حل جميع المشكلات الإنسانية؛ بل يلبي العلم والطبيعة جميع متطلبات البشرية، من أجل استمتاع الإنسانية بحياة أفضل تكون أكثر كرامة للإنسانية.

إشكالية البحث

يتساءل البحث عدة أسئلة، منها ما يخص الاتساق الفكري لمسببات فكرة الإلحاد لدى " لامونت "، وعن كيفية تبلور الفكرة عنده، وعن مدى اعتقاده فيها كضرورة منهجية، أم اعتقاد قادته إليه استدلالاته الاستنباطية من بعض النظريات العلمية.

وأخيرًا يُجيب البحث على السؤال عن مدى مصداقية أدلة " لامونت " الإلحادية عند وضعها على المحك النقدي، وتحليل مقتضيات منظورها الإلحادي.

وهل كان " لامونت " محقًا في استنتاجاته العلمية؟، وهل حقًا هناك تعارض بين العلم ووجود إله خالق للكون ؟، أم أن هناك استنتاجات تناقض منظوره للنتائج العلمية نفسها؟، وهل تصمد مقولاته الإلحادية أمام شهادات العلماء المتخصصين في علم الفلك، والفيزياء، والكيمياء الحيوية، وعلماء الأحياء المعاصرون؟ لتحديد أي الفريقين يملك أدق الأدلة، وأكثرها رجاحة واتساقًا.

أهمية البحث

قد يكون لنموذج دعوة " لامونت " للإلحاد امتيازًا وخصوصية، من حيث المعاصرة من جهة، ومن جهة أخري لعلاقة الاعتماد المتبادل للإلحاد مع فلسفة الاتجاه الإنساني، الذي

تأسس تبعًا له الاتحاد الإنساني والأخلاقي الدولي؛ فلهذا تم اختيار نموذج " لامونت " الإلحادي.

ونظرًا لأهمية الموضوع وانعكاساته الخطيرة، من حيث سرعة انتشار دعوة الإلحاد، ولافتقاد الساحة الفكرية لبحث علمي يتناول أهم جوانب " الإلحاد " -من وجهة نظر الملحدين أنفسهم -بالتمحيص والشرح. ونظرًا لموجات التفاعل السريع بين الشعوب في جو عام مفعم بالعولمة والثورة المعلوماتية، وجب تحليل أفكاره الأساسية، وتمحيصها، ونقدها علميًا لتفنيد مزاعم الملحدين، لأنه من موضوعات الساعة.

منهج البحث

يُستخدم في البحث عدة مناهج بحسب طبيعة موضوعاته، منها الوصفي -السردي-، والمنهج التحليلي، والتاريخي المقارن، وأخيرًا المنهج النقدي.

خطة البحث

نبدأ بتمهيد تعريفي بـ " الإلحاد ".

- المحور الأول: تناقضات طرح الإلحاد.
- المحور الثاني: العلم يدحض الإلحاد.

وفي نهاية البحث نختم بنتائج وتوصيات البحث.

نقد ودحض مزاعم " كورليس لامونت "[A](1902 – 1995 م)، الإلحادية

تمهيد

مفهوم الإلحاد

المعنى المعجمي-بأي لغة -لكلمة " إلحاد " يفيد جحود وإنكار الألوهية، والكفر بجميع الأديان، ورفض أدلة المفكرين على وجود الله. والفعل ألحد يعني عَدَلَ عن الحق، وأدخل فيه ما ليس منه[1].

وهذا يعني أن الإلحاد هو الكفر بوجود إله، وبجميع الديانات السماوية، وكذلك الوحي، والكتب المقدسة، وأيضًا إنكار الديانات الوضعية، ورفض الفلسفات الدينية، وتبني فكرة خلق الطبيعة لنفسها بنفسها، مما يعني أن جميع الموجودات الكونية قد صدرت بالمصادفة عن الطبيعة، بما فيها الإنسان وعقله، اعتمادًا على نظرية (الانفجار العظيم) لتفسير بداية الكون،

[A] كورليس لامونت Corliss Lamont (28 من مارس 1902م – 26 من أبريل 1995 م) ولد في إنجلوود بنيوجيرسى، تخرج بامتياز من جامعة هارفارد عام 1924م، وأتم الدراسات العليا في جامعة أكسفورد، وأكمل الدراسات العليا في جامعة كولومبيا، حيث درس على " جون ديوى " (John Dewey). ومنذ عام 1928م أصبح مدرسًا للفلسفة بجامعة كولومبيا، التي حصل فيها على الدكتوراه في الفلسفة عام 1932م، وقام بالتدريس في جامعات كولومبيا وكورنيل وهارفارد و" المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية "، من أهم مؤلفاته : " وهم الخلود " (Illusion of Immortality) تقديم " جون ديوى " (1935 م)، و" فلسفة الإنسانية " (The Philosophy of Humanism) (1949م) هومن رواد الاتجاه الإنساني، وكان الرئيس الفخري " لمنظمة إنساني الأمريكية" (American Humanist Association) منذ عام 1977م، وحصل على جائزة السلام لغاندي في العام 1981 م، ومنح بعد وفاته جائزة الاتحاد الإنساني والأخلاقي، في العام 1998، على تميزه في خدمة " الاتحاد الإنساني الدولي " (International Humanist and Ethical Union).

والاعتقاد بصحة نظرية " تشارلز داروين Charles Darwin " في التطور والارتقاء، لتبرير الاستمرارية، بتلقائية التفاعلات الكيميائية، والحيوية للمخزون الكوني (المادي والطاقة المتبادلة أو المتجددة)، الذي يُشكل الوجود الواقعي (الطبيعي).

المحور الأول

تناقضات طرح الإلحاد

أولًا - لتثبيت جذور فكرة الإلحاد، وتدعيمها فلسفيًا، يعود " لامونت " إلى تاريخ التراث الفلسفي منذ " بروتاجوراس " (الذي رأى أن الإنسان مقياس كل شيء)، والسفسطائيين، وأرسطو(المعلم الأول صاحب النظرة العلمية، الذي لا تظهر لديه فكرة الإله إلا عند تفسيره للحركة والتغيير فقط، فالإله عنده هو المحرك الأول الساكن؛ أي خارج نطاق الكون المتحرك)[A]، وأفلاطون، وديكارت[B]، وحديثًا الفلسفات الطبيعية (التي تقر بلانهائية الكون الطبيعي، وأنه لا وجود خارج الطبيعة، وأن جميع الأشياء الواقعية مصدرها الطبيعة بما فيها الشخصية)، والفلسفات المادية (التي ترى أن المادة هي أصل جميع الموجودات حتى العقل، والفكر، والعواطف)، والاشتراكيون بأفكارهم - التي يتفق فيها معهم - حول أهمية الدور الإنساني لفهم ذاته، واعتماده على ذاته فقط، وتحديد مستقبله، وتقدمه الحضاري، ورفضهم جميعًا فكرة الألوهية تقريبًا، أو القوة الميتافيزيقية المتعالية. ليستنتج من نصوصهم ما يدل على معرفتهم؛ بل إقرارهم بفكرة الإلحاد، ورفضهم لفكرة العقائد والفلسفات الدينية، وإقرارهم بضرورة الرجوع للطبيعة، والاعتماد على قوانين العلم ونتائجه، لفهم الإنسان بشتى جوانبه، ودوافعه، ومطالبه، والسعي الحثيث لإسعاد البشرية بعيدًا عن فكرة الإله الأعظم، أو التسلط العقائدي، وكل ما من شأنه، بحسب تعبير "لامونت" إعاقة المسيرة الحضارية للبشرية.[2]

قد يكون " لامونت " مُحقًا في بعض ممن استدل بهم، ولكنهم ليسوا جميعًا يتنكرون لفكرة الألوهية، بدليل موقف أرسطو من الإله، ففي مجال العلم والفلسفة (محاولته لتفسير العالم)، قد لا يُنكر خالق هذا الكون، ويؤجل الحديث عنه إلى المجال الأخلاقي، أو الإلهيات، وهذا حال معظم الفلاسفة الذين يستشهد بهم ؛ والغريب أنه يصفهم بأنهم ثنائي الديانة، في حين كان الأولىَ به تعريفهم كموحدين لا ينكرون وجود إله لهذا الكون، ولم يمنعهم إيمانهم من سبر أغوار العلم بحسب ما يقتضي البحث به، فكيف به يُعَد " ديكارت " صاحب الأدلة العقلية على وجود الله (ضمن ثنائي الديانة)، أو يصفه بأنه ملحد. وكان الأوليَ به أن يستدل من فكرهم، ومنهجهم العقلي، على كيفية توصلهم لضرورة وجود إله لهذا الكون، ثم يُفند، ويَنقد أدلتهم، واستدلالاتهم، وقياسهم الذي توصلوا به لفكرة ضرورة وجود الله.

أما عن رأي الفلاسفة الذين يصرحون بعدم وجود إله، فمن المعروف عن " لامونت " اعتماده على العلم ونتائجه، فقط لا غير، وهنا نطرح سؤال عن سبب ثقته في أراء هؤلاء، هل أثبت العلم صحة ويقين أراءهم التأملية النظرية؟ أم هم ممن يتبعون، ويطبقون المنهج العلمي للوصول لنتائجهم النظرية تلك؟

[A] والجدير بالذكر هنا أن " لامونت " يرى أن ورود فكرة الإله في نظرية أرسطو تُعد من سقطاته كعالم، ومن تناقضاته الفكرية تمامًا مثل اقراره بالعبودية، وبدونية المرأة وضرورة معاملتها كمتاع مثل باقى الأشياء . ولكن بعيدًا عن هذا فهو كما يراه " لامونت " كان يُفسر العالم كما هو ساند في النزعة العلمية المعتمدة على الطبيعة قبل ظهور النظرية التطورية بزمان.

[B] يعتبر " لامونت " كلًا من أفلاطون و" ديكارت " ثنائي الديانة، بمعنى أن كلًا منهما يؤمن تمامًا بالنزعة الإنسانية في مجال العلم، وكفاية العقل لتفسير الطبيعة، ويرفضان الميتافيزيقا (وهذا أساس الإلحاد)، ولكنهما يلجآن لفكرة الإله، والعودة للميتافيزيقا في المجال الأخلاقي، أو لتأسيس الأخلاق كما فعل " كانط ".

وهنا يتوجب سؤال " لامونت " عن مصدر مصطلحه " ثنائي الديانة "، الذي أطلقه على مجموعة الفلاسفة والعلماء الذين يعتمد عليهم لإثبات جذور الإلحاد، كيف تخيل معناه بالرغم مما يحتويه مصطلحه، من تناقض منطقي واضح؛ إذ كيف يُؤمن إنسان بوجود الله، وفي نفس الوقت لا يؤمن بوجوده، ألا يرفض صحيح العقل السليم الجمع بين النقيضين (الإيمان والإلحاد) معًا للشخص نفسه والوقت ذاته؟

أما عن الماديين والاشتراكيين، فلا ندري على أي أساس علمي استدل " لامونت " بأنهم جميعًا ملحدون، في حين أن من المعروف عن " كارل ماركس Karl Marx "، ومعظم أتباعه كانوا يهودي الديانة، حتى الماديين (فرويد Freud، وداروين) كانا يهودي الديانة، فلم يكونا ملحدين، بالرغم من كونهما ماديين علميًا، ومنهجيًا.[3]

ثانيًا -بناًء على ما سبق يستنتج " لامونت " أن معظم الأديان والفلسفات الدينية، تعتقد (تعترف وتقرر) أن كلًا من العقل والشخصية، والحب والغرض (الهدف والقصد)، في جوهرها سمات واقعية (أي واقعية تستمد وتظهر في الواقع)، وهي ليست مستمدة من شرعية (أو قدسية) العقائد الدينية، فمصدرها الوجود الواقعي، كباقي القيم الإنسانية المعترف بها على هذا الكوكب، كتمديد للوجود (إفراز، ونتاج تحليل، وانتقاء الخبرة البشرية في الوجود الواقعي).[4]

والغريب حقًا أن نجد مفكر الاتجاه الإنساني ورائده " لامونت " يحتكم إلى ما تُقرره الأديان والفلسفات الدينية، ليُثبت عدم حاجتنا للأديان ولا للمعتقدات لتحقيق خيرنا العام، لأن جميع الجوانب الإنسانية (المادية، والمعنوية، والروحية، والعقلية) مصدرها الواقع أو الوجود الطبيعي، وعلى ذلك يجب - بحسب " لامونت " - أن نتخلى عن كل ما هو فوق الطبيعة (أي ميتافيزيقي)، والذي يوضح هذا التناقض قول " لامونت " في نفس الموضع " أن الاتجاه الإنساني يري أن الدين خارق، وفي معظم فلسفته (منهجية الدين وطريقته) يُكرس لجمود الناس عامة، وتمحورهم حول صيغه وتفسيراته ".[5] وللرد على هذا الزعم نكتفي بتذكير " لامونت " بما حققته الحضارة الإسلامية علميًا وثقافيًا للبشرية، وقتما كانت أوربا تعيش في ظلمات العصور الوسطى، في فترة ازدهار الشريعة الإسلامية وتطبيق مبادئها، بالإضافة إلى ما تتضمنه الكتب المقدسة للعقائد الدينية من دلائل على الإعجاز العلمي، والعديد من الدعوات للتأمل النظري، والانفتاح الثقافي، والتعقل العلمي، والتفكير الإبداعي؛ للمساهمة بجدية في عمارة الأرض، وإسعاد البشرية وحمايتها، ومع ذلك فقط تأتي التعمية، والتحجر، والتحجيم، من المفاهيم الخاطئة التي يفرضها رجال الدين كممارسات تسلطية خاطئة باسم الخطاب الديني. هذا بالإضافة إلى أن الحضارة الغربية ديانتها الرسمية هي المسيحية، فما تقدمها العلمي سوي انعكاس لروح المسيحية.

ثالثًا - نجد معظم الملحدين ومعهم " لامونت " يُكونون قناعتهم الإلحادية اعتمادًا على نتائج العلم، التي تؤكد لهم أن هذا الكون خلق نفسه بنفسه (نظرية تطور الطبيعة المادية)، وهنا يستدل " لامونت " بنظرية " تشارلز داروين " التطورية في أصل الأنواع (وهذه النظرية هي مجرد افتراض لم يثبت صحته ؛ بل على العكس من نتائج علم تشريح الأعضاء الحديثة، التي أثبتت خطأ النظرية التطورية، وهذا ما اعتمد عليه " هنري برجسون Henri Bergson " في رفضه للمذهب الميكانيكي على طريقة " داروين " أو الداروينية الجديدة.[6]حيث أعتمد "برجسون" على

اختلاف تشريح عين الرخويات- و بالتالي طريقتهم في الإبصار- عن تشريح عين الحيوانات البرية، بما يثبت استحالة تطور عين إلى عين الحيوانات لاختلاف تركيب كل منها.

زعِمَ " لامونت " أن " داروين " وزملاءه أسسوا تلك النظرية، بعدما جمعوا الأدلة البيولوجية، على علاقة التطور التسلسلية التي تربط الإنسان العاقل بالطبيعة، والملحدون ومعهم " لامونت " يستنتجون من هذا أن هذه النظرية بما أثبتته قد قوضت أقوي وأكثر حجج العقائد الدينية، وما تبعها من فلسفات دينية على الإله الخارق للطبيعة والخالق للإنسان من عدم.[7] وهذا يؤكد أن نظرية " داروين " التطورية هي أساس قناعة " لامونت " بضرورة الإلحاد؛ كما كانت مصدر نظريته في الانتخاب الصناعي للتطوير الذاتي من بعد انتهاء دور الانتخاب الطبيعي.[8] ولم يعلم " لامونت " وأتباعه الملحدين المتحصنين بالعلم، ونتائجه، أن نظرية التطور والانتخاب الطبيعي لم تثبت صحتها حتى الآن، ولم يتم التحقق من صدقها حتى كفرض ؛ بل ويستحيل إقامة الدليل على صدقها كفرض تفسيري، ولا سبيل للتيقُن من صدقها إلا بإجراء تجارب يتم من خلالها تحويل سلالة إلى أخري، وتطوير سلالة من القردة العليا لتتطور (فتتحول) إلى بشر، وهذا قطعًا أمرًا مستحيل التحقق واقعيًا، فكيف بأرباب العلم وعلماء الفيزياء وغيرهم من علماء الأحياء أن يقيموا معتقداتهم (الإلحادية) على مثل هذا الوهم الميتافيزيقي، الظني، الفاشل.

أما بالنسبة لاعتمادهم على نظرية " داروين " في التطور والارتقاء، فقد تم انتقاد نظرية التطور،[A] و" كتاب أصل الأنواع " وألفت كثير من البحوث، والكتب العلمية في الرد على تلك النظرية، من الناحية العلمية، والمنطقية، حيث بينت قسم من هذه الكتب في العصر الحديث ضعف النظرية من الناحية العلمية، وعدم توافقها مع الاستكشافات الحديثة لعلم الحفريات، أو عدم تفسيرها للحلقات المفقودة في سلم التطور بشكل علمي، وغير ذلك. ومن الكتب المؤلفة في نقد النظرية، كتاب" وهم الشيطان- Devils Delusion " للبرفسور " ديفد برنلسكي David Bernlski "(عام 2009 م). وكذلك محاضرات العالم الأمريكي البروفيسور " دوان ت. كيش" Duane T Gishالتي ألقاها في جامعة كاليفورنيا للرد على نظرية التطور، بأسلوب علمي وحضاري، وهو أستاذ متخصص في علم الكيمياء الحيوية، وله عدة أبحاث في جامعة كورنل، وجمعت محاضراته في كتاب "هل تعرضت لغسيل الدماغ؟ - ? Have you Been Brainwashed ". ومن كتبه أيضًا كتاب " المتحجرات ترد على نظرية التطور بالرفضEvolution The Fossils Say No".[9]

لقد زعم " داروين " هذه المزاعم والادعاءات في كتابه " أصل الأنواع The Origin of Species " دون أن يكون لها أي سند علمي تقوم عليه، وقد جاء فيه اعتراف مطول بأحد فصول كتابه تحت عنوان "المصاعب التي واجهت النظرية The difficulties faced by the theory " ما مفاده أنها لم تعثر على إجابات لكثير من الأسئلة المحيّرة.

[A] لقد سبق وأوردنا هذا النقد نفسه لنظرية التطور في بحث آخر لنا عن " دراسة تحليلية نقدية للاتجاه الإنساني عند " كورليس لامونت " في مجلة كلية آداب جنوب الوادي 2017.

إن المصاعب التي واجهت النظرية، كان "داروين" يأمُل أن يزيلها التقدم العلمي، وكان من المنتظر أن تشكل الأبحاث العلمية الحديثة المتقدمة دعمًا لنظرية " داروين "، ولكن النتائج الحديثة والبحوث الطبية جاءت على عكس المتوقّع، فالأسس التي كانت تعتمد عليها النظرية كانت تتهاوي وتتحطم الواحدة تلو الأخرى - بالرغم من الدّعاية التي روجت لنظرية " داروين " - بدليل ما قدمه عالم الأحياء " ميكيل جون دنتون - Michael John Denton "[A] في كتابه "نظرية في أزمة - Evolution: A Theory in Crisis " من أسباب انهيار نظرية التطور، واندحارها أمام العلم الحديث.

وهذا ما سوف تأكده بعض شهادات العلماء المعاصرين في تخصصات الكيمياء الحيوية، والأحياء، والطب الوراثي، مما سنعرضه في نهاية الملاحظات النقدية على الإلحاد.

رابعًا - لتوضيح أن علاقة الاعتماد المتبادل بين " الاتجاه الإنساني " والاعتقاد في الإلحاد إنما هي الضرورة المنهجية فقط، وما استتبع ذلك من ضرورة التصديق به كدعامة أساسية تضاهي الحقيقة العلمية لدى " لامونت "، بما يُوجب عليه ذلك - الوهم الفكري أو الزعم الخاطئ - تقديم الأدلة على صحة زعمهم؛ فهنا يَظهر تناقضه الفكري وتهاوي دعواه الإلحادية، حين يستطرد حديثه عن نظرية " داروين " في تطور الأنواع، حيث يصفها بأنها " فلسفة ثورية " [10] إذن فهي ليست نظرية علمية، ولم يتم تقديم أدلة على صحتها كما زعم، وبالتالي فهي ليست علمية، ولا تمت لنتائج العلم بأي صلة، فهي مجرد وجهة نظر فلسفية؛ بل التناقض الأوضح من ذلك وصفه - بالعلمية - لعمل أكبر مدرسة فلسفية أثرت بشدة في الأوساط الأكاديمية الأمريكية، التي انطلقت من جامعة كولومبيا للرائدين الملهمين " جون ديوي "[B]، و" فريدريك وودبريدج Frederick Woodbridge "[C]، خصوصًا " جون ديوي " الذي عبر بوضوح كامل عن " الفلسفة الثورية الداروينية " في علم الأحياء - عن أصل الأنواع – بما شكل وجهة نظر " ديوي " التجريبية العنيدة، والتي ظهرت خلال مؤلفاته " الخبرة والطبيعة Experience and Nature "، و" الطبيعة والسلوك الإنساني Nature and human behavior "، و" في إعادة اعمار الفلسفة In the reconstruction of philosophy "، و" موعد الصدور عن الطبيعة Chests date for nature "، و" الطبيعة والذكاء التعاوني Nature and cooperative intelligence " [11]. فكيف بعد ذلك يمكن قبول وصف " لامونت " لفكر" ديوي " ومدرسته بالعلمية.

خامسًا - يستشهد " لامونت " بأن مجمل إنتاج " جون ديوي " الفكري والعلمي، قد تركز على الآليات التي تمكن البشرية من استمرار البقاء والتكيف والتطور الطبيعي، لأنه عارض و تجاهل تمامًا الدين والفلسفات التي تعتمد على موضوعات ميتافيزيقية (كالمثالية)، وجميع الكيانات والقوي الخارقة للطبيعة، حتى البرجماتية، فقد أهتم بتنقيتها من العناصر الذاتية؛ لذا نجده قدم أفضل فهم للعلوم الحديثة، والطرق العلمية لتطور الفلسفة والثقافة، اعتمادًا على الخبرة

[A] مايكل جون دنتون (1943م - ....) عالم بيولوجيا أسترالي، معاصر، يعيش ويعمل في لندن وتورنتو، متخصص بعلم الوراثة البشري التطوري، نُشر كتابه " نظرية فى أزمة " عام 1985م.

[B] جون ديوي (1859م - 1952م) هومربي، وفيلسوف، وعالم نفس أمريكي، من رواد الفلسفة البرجماتية، يعتبر من أوائل المؤسسين لها. ويُقال انه هومن أطال عمر هذه الفلسفة، واستطاع أن يستخدم بلياقة كلمتين قريبتين من الشعب الأمريكي هما "العلم" و"الديمقراطية."

[C] فريدريك جيمس يوجين وودبريدج (1867م – 1940م) فيلسوف أمريكي من رواد الواقعية الأمريكية، ومؤسس الحركة الطبيعية في الفلسفة الأمريكية، وتأثر فيها بطبيعيات أرسطو، وأهم إسهاماته الفلسفية : تأسيسه لمجلة الفلسفة، التي كتب بها مجموعة مقالات عن الروح والطبيعة، وأرسطو، وسبينوزا، ولوك، راعتها جميعها قسم الفلسفة بجامعة كولومبيا، وعمل عميد لكلية العلوم السياسية، والفلسفة، والعلوم البحتة (1929م – 1937م) حتى سن التقاعد.

التجريبية، باعتبارها أفضل السُبل العلمية فاعلية في حل مشكلات جميع أنشطتنا الحياتية والفكرية، وهذه الخبرة التجريبية هي ما نحتاجه اليوم بشدة، إذا ما رغبنا في التوسع في الفكر العلمي، لأنها الطريقة الوحيدة لمد جسور التواصل ما بين العلوم الطبيعية، والمجال الشاسع للمعرفة العلمية للشؤون الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية؛ إنه نظام فلسفي ضخم، ذو طبيعة متكاملة، قائمة على أسس علمية، تُسهم بالنهوض العلمي في جميع المجالات.[12]

لكن كيف استنتج " لامونت " أن فكر " ديوي " العلمي ونظامه الفلسفي، كان نتيجة لمعارضته للدين؟، لأن هذا استدلال خاطئ، سواء لعدم معارضة الدين للعلم، ولا لنتائجه من جهة، ومن جهة أخرى لم يُهاجم " ديوي " العقائد الدينية ؛ بل على العكس فهو يدرك تمامًا علاقة الأديان بالحضارات، فنجده مثلًا يذكر فضل الحضارة الإسلامية على نهضة الغرب، فمن المعروف تأكيد " جون ديوي "، " في محاضراته على أن الغرب لا يذكر فضل الحضارة الإسلامية، فهو يقول : إننا عادة نغض الطرف عن الاعتراف بفضل الحضارة المحمدية وأثرها في الحضارة النصرانية، فلقد كانت الحضارة الإسلامية متقدمة بشكل كبير، وهذا كان واضحًا في ميدان الفلسفة، وأيضًا في الميادين الأخرى ." [13] ألا يكفي هذا دليلًا على أن " ديوي "لم يكن يعارض الدين، ولم يتجاهله؛ بل ولم يكن ممن يزعمون بأن العقائد الدينية هي سبب جمود الشعوب، كما يزعم " لامونت " والملحدون.

ومثل هذه الاستدلالات الخاطئة هي ما يبني عليه " لامونت " اعتقاداته الإلحادية، بحيث ينتقي من نصوص الفلاسفة والعلماء، أو المفكرين ما يمكن أن يجتزئه ليعيد صياغته التأويلية لخدمة زعمه الزائف، ومن الأمثلة على ذلك، ما يذكره " لامونت " من نصوص وأفكار يستدل منها على معارضة بعض الفلاسفة الماديين لفكرة الإله الذين منهم " طاليس، وإناكسيماندر، وهيرقليطس، وديموقريطس، وأبيقور، وتوماس هوبز، وأوجست كونت، وهربرت سبنسر، وبرتراند راسل، وتوماس هاكسلي "[14]؛ حتى يصل مرة أخري إلى أفكار " جون ديوي ".

سادسًا ـ يبحث " لامونت " بعد ذلك عن جذور " الاتجاه الإنساني " الإلحادية خلال فلسفات دينية، مثل البوذية، فيمارس منهجه في التعمية الفكرية، والاستدلال الخاطئ، ليستنتج أن " بوذا " نفسه كان سيندهش من كثرة من يقدسوه ويعبدوه كإله، فهو مجرد إنسان أسس طريقة لتحقيق السعادة للإنسانية، ولم يكن يهدف إلى عقيدة دينية ولم يدعو للربوبية؛ والنهج نفسه طبقه " لامونت "على الكونفوشيوسية ليستنتج إنها وسيلة لتحقيق السعادة للصينيين، أي أنه يستنتج من هذه الفلسفات الدينية ما يدعم " الاتجاه الإنساني "، لأن هدفهم واحد هو تحقيق السعادة للبشرية، بالاعتماد على العقل البشري، وخبراته التي تَهَدي البشرية إلى سبل تحقيق سعادتها، فهو يزعم أن دعواتهم (بوذا، وكونفوشيوس) هي إنسانية الأساس ؛ بل أن " كونفوشيوس " كان إنساني الحقيقة، وأن الإنسانية الصينية ما تزال وفيةٍ لروحه.[15]

سابعًا ـ ينتقل بعد ذلك " لامونت " إلى تناول الديانة اليهودية ثم المسيحية (العهد القديم، والعهد الجديد) بأدواته التشريحية، ولكن بمنهج مختلف، حيث نجده تارة يشكك في قدسية نصوصها بنسبتها إلى فلسفات يونانية قديمة ـ كانت تحمل الأفكار نفسها ـ، أو ليستنتج أن فكرة الألوهية تُشير إلى فكرة إله فخري لهذا الكون، بعدما خلقه وأعطاه قوانينه، فلم يَعُد يتدخل في رعايته، لأن الله أراد للإنسان أن يبسط سيطرته على الطبيعة، ليكتشف قوانينها بعقله، فيُحقق بذلك انسجامه معها ليُحصل سعادته، ليستنتج " لامونت " من الديانتين ما يؤكد أنهما تؤيدان

وتدعمان " الاتجاه الإنساني " كنزعة إنسانية، بعد تخليصهما من أي دعاوي ميتافيزيقية، بحسب زعم " لامونت " وفَهمه الذي يستنتجه من النصوص المقدسة؛ بل وقد يلجأ أحيانًا لفهم غيره لها من كهنة مغمورين يؤيدونه في تأويلاته.

وفي هذا دليل كافٍ على تَشكك " لامونت " وتناقضه، وتردده في فكرة الإلحاد، حيث تارة يستنتج وجود إله خالق لهذا الكون، ولكنه كما يراه إله فخري، وتارة أخري يُنكره.

و باستراتيجية التضليل نفسها، يختزل " لامونت " (أو يُحلل أو يُخلخل) " العهد القديم " في أن فكرة الإيمان بالخلود هي مُفيدة للشخصية الإنسانية (ثقةً في قدراته وإعلاء من شأنه)، والأهم هو تعلقها بمستقبل القبيلة، أو الأمة، المرهون بمدي قناعتهم بوجود الله، الذي في النهاية أفرز تفضيله لبني إسرائيل على باقي البشر، " شعب الله المختار "، ووعده لهم بأرض الميعاد - القدس الجديدة - على هذا الكوكب الأرضي لا في السماء غير المرئية، وأن أنبياء العهد القديم قاتلوا نيابة عن الشعب ضد الفساد والأنانية، ويذكر أيضًا أن سفرين من العهد القديم هي أعظم الوثائق الإنسانية في كل الأدب، ويستشهد بحكمة سليمان - عليه السلام - على أنها من الروائع الشعرية التي تركز على تحقيق السعادة البشرية، أما عن المبادئ والقيم الأخلاقية في سفر الجامعة، فيؤكد " لامونت " أنها لا شك رسالة تحمل النكهة الأبيقورية (سبحان الله عما يصفون)، فأثر المدرسة الأبيقورية واضح في العهد القديم، وأيضًا أثرت على العهد الجديد، وهنا يزعم أننا عند تحليلنا للعهد الجديد (المسيحية)، ونركز على حياة الفرد خلال القيامة والأبدية، نكتشف أنها قائمة على صفاتنا الأساسية (أي الأرضية)، أما الأخذ بتلك الصفات إلى أقصى مدى لها فهي تعزى فقط إلى الله الأب، ويسوع الابن، أي أننا بحاجة إلى إله أكثر إنسانية، ولكنه بعيدًا عنا، لذا تدعونا الكنيسة إلى الالتزام بحكمة " العذراء مريم " (عليها السلام) وغيرها من القدسين، لنهتدي بهم لاستعادة اللمسة الإنسانية، ثم يذكر " لامونت " أنه بالرغم من أن أخلاق العهد الجديد يكتنفها الغموض، حيث تسند (تُرجئ) في معظمها، الجزاء والثواب الأعظم إلى علم الخلود؛ إلا أنها غنية جدًا بفلسفة القيم الإنسانية، التي تُؤسس للروح الديمقراطية، وتُعمق الشعور بالمساواة .[16]

وهنا المغالطة التي يبني عليها " لامونت " قناعته، لأنه تعمد غض الطرف عن التالي:

1-لم يبحث عن مصدر القيم الأخلاقية العامة للبشرية؛ بل فقط أكتفى برد القيم الأخلاقية للعهدين القديم، والجديد، إلى المدرسة الأبيقورية، ولم يشغل نفسه بالبحث عن المصدر الأول لتلك القيم الأخلاقية. فقد يرى "لامونت " وجميع الملحدين أن مصدرها هو الخبرة الإنسانية وحدها، دون البحث عن مصدر أبعد من ذلك، بأن يكون مصدرها بقايا العقائد الدينية السابقة، التي عرفتها المجتمعات البشرية السابقة على مر تاريخ البشرية، ومنها استخلصت البشرية خبرتها بأهم مبادئها الأخلاقية.

2-تجاهل " لامونت " استخدام المنهج المناسب لتحليل النصوص الدينية المقدسة؛ فالمنهج التحليلي العلمي الذي استخدمه، كان ينقصه ضرورة معرفة، وتحديد الأهداف الحقيقية، للأسفار التي تناولها بالتحليل، فالهدف التشريعي يقتضي أكثر من مجرد النصح، والإرشاد؛ لذا فلم يدرك بالتالي اختلاف النتائج المتوقعة للعملية التشريعية، حيث يتم بناء عليها عملية الانتقاء للأخيار من البشر، كل فرد بحسب عمله، واختياره الأخلاقي الحر، الذي سيوفر لصاحبه الثواب الدائم المصاحب للخلود. و لوتوفّر لـ " لامونت " مثل تلك الرؤية، ما وقع في لبس بشأن الغموض

الذي وصم به الأخلاق المسيحية، حيث رأى أن معظم الثواب فيها يرتبط بالحياة الأبدية. وها هو يُنقص من قدر الأخلاق المسيحية التي سبق ووصفها بأنها أخلاق الاتجاه الإنسانية.

3 -استخدم "لامونت" قياس خاطئ حيث قارن حكمة " سليمان " عليه السلام، بروائع الأشعار، دون النظر إلى قيمة المحتوى التشريعي للحكمة، وأنها حكمة، بخلاف اختلاف المجال الأدبي عن المجال الديني، فلا يُقارَن هذا بذاك، وقد يكون قصد من وراء المقارنة هنا، أن يبُث الشك في قدسية نصوص (العهد القديم) المقدسة، بقياسها بالأعمال البشرية المشابه.

4 -تحدث عن صفات أهل القيامة بسخرية، إذ كيف تكون هي صفاتنا الأرضية نفسها، فماذا يُقنع "لامونت" حتى يُصدق بكونها حقيقة إيمانية، هل كان سيدرك معنى أي صفات غير الصفات البشرية، لو نُسبت لأهل القيامة والأبدية، وهل نحن كبشر يمكن لعقولنا تصور غير الصفات التي نعرفها، أو ما هو على منوالها، فهذا المأزق نتيجة لقلة خبرة " لامونت " - مدعي المنهج العلمي - بالتجربة الدينية التي تناولها بالنقد، دون حتى الإلمام ببعض حقائقها، ولا يُدرك حتى أسس منهجها، فكيف ينقض ما ليس له به علم.

ثامنًا -استنتج " لامونت " من فرضياته النقدية الخاطئة (السابقة)، أو استدل - كعادته مما سبق - على حقيقة جديدة لا تخدم سوى اتجاهه الإنساني حيث يرى أن رسالة " يَسوع " كانت مصدر إلهام لتحقيق سعادة الجنس البشري في هذا المجال الدنيوي، وهو في هذا يتوافق مع إنسانية " الاتجاه الإنساني "، حيث دعا "يَسوع " وكرر دعوته مناديًا بالمُثل (القيم) الإنسانية السامية، كالمساواة والعدالة الاجتماعية، وتقديم الإنسانية على أنانية الذات الفردية، ولتحقيق السلام على هذه الأرض بحسب رواية " الإنجيل "، وقد كان يُدرك أهمية العديد من المتطلبات المادية الدنيوية، للبشر من الرجال والنساء، فقد كان يُشفي المرضى، ويطعم الجائع، وكل هذا يُؤكد توافق " يسوع " مع مبادئ الإنسانية [17].

هنا لا يبحث " لامونت " عن توافق مع المسيح ولا المسيحية؛ بل يُقوض دعائمها كدعوة دينية تدعو لعبادة الله خالق هذا الكون، من خلال محاولة نزع أي صفة من صفات التقديس على المسيح ورسالته، ولتوضيح أنه لا يُخالف كل ما فيه سعادة البشرية؛ بل هذا ما تدعو إليه الإنسانية، كما تدعو إليه المسيحية تمامًا، ولا حاجة هنا -بحسب رأي " لامونت " -لأي موضوعات ميتافيزيقية، ولا تقديس، ولا ألوهية، ولا وحي طبعًا، لأنها كلها أمور دنيوية، واحتياجات بشرية متعلقة بالحياة على هذه الأرض. ونجده هنا كعادته لا يخبرنا عن الكيفية التي كان يشفي بها المسيح المرضى (أليست معجزة تنتمي لعالم الميتافيزيقا).

تاسعًا - يرى " لامونت " أنه بالرغم من أن الإنجيل قد صور المسيح طوال الوقت، على أنه من الشخصيات المتعالية (أو غير العادية)، من حيث كونه أعظم شهيد من أجل قضية البشرية (خطيئة آدم)، في حين إنسانيته أقرب من هذا التعالي؛ لأن هذا التفسير الذي يجعل من " يسوع " رجلًا عظيمًا جدًا بدلًا من إله، قد لاقى دعمًا واسعًا داخل المسيحية نفسها، في بداية القرن الرابع الميلادي، لدى القسّ " أريوس Arius " الذي شدد على صفات المسيح الإنسانية، وأنه كان من مادة مختلفة عن الله الآب، وجادله " أريون Arain " الذي نقى العقيدة الرسمية من البدع، مؤكداً أن الله كان الثالوث (الآب، والابن، والروح القدس)، ثم عاودت " الآريوسية " [A]

[A] الآريوسية هي مذهب مسيحي (إحدى الطوائف المسيحية، التي لم يَعُد لها وجود في الوقت الراهن) تُنسب إلى أريوس (250 م – 336 م) تقريبًا، أحد كهنة كنيسة الإسكندرية. وتتمحور تعاليمها المختلفة عن سائر الطوائف في علاقة أقانيم الثالوث المقدس بعضها ببعض، حيث ترى أن الأقنيم الثاني (المسيح) لا يتصف بصفات

في الظهور مرة أخرى مع ظهور البروتستانتينية (في القرن السادس عشر)، لتعلن أن الإنجيل لا يعرف شيئًا من هذا الثالوث، وأن الله واحد، لتظهر منذ عام 1553م حركة الموحدين[A] التي تُصرّ على الأساس الإنساني للمسيح، وانتشرت الحركة سريعًا، وانتقلت من بولندا إلى انجلترا، ثم توغلت أكثر في أمريكا منذ القرن الثامن عشر، وإن كانت نظرة الموحدين حينها لم تكن موافقة للاتجاه الإنساني تمامًا، ولكن تغيرت النظرة على أيدي الليبراليين (المطالبين بالتغيير في اللاهوت)، التي دعمتها حركات الإصلاح الاجتماعي، المُطالبة بحق الحرية الدينية للأفراد، ومع بداية القرن العشرين انفصلت عن حركة الموحدين الأمريكية والأوربية (العامة)، طائفة غرب وسط أوربا مكونة حركة " الإنسانية الدينية " التي بدأت موحدة، إلى أن عجلت بها الخطبة الصعبة (الوعرة)، التي دارت بين الفلاسفة والكتاب ورجال الدين في اجتماع " دي موين Des Moines 1917م " [B] والتي أدت لظهور الإنسانية اللادينية (الإلحاد) عام 1920م، بعدما تناولتها كلية اللاهوت في جامعة هارفارد، والتي انتهي بها المطاف إلى إصدار البيان الإنساني الأول العام 1933م، والأهم - بحسب " لامونت " – هو كيف كان التوحيد هو السبب والتربة الطبيعية لنمو معتقد إنسانية " الاتجاه الإنساني " ؟ إنها الثورة التوحيدية ضد المسيحية الأرثوذكسية، لتجني الفائدة من قيمة، وكرامة الطبيعة الإنسانية، التي تعتمد عليها الحياة البشرية.[18] وهذا هو أساس الاتجاه الإنساني.

مما سبق يتضح كم التناقضات الفكرية التي ينتهجها " لامونت "، فهولا يُفصح عن طبيعة المناقشات التي أدت لظهور الإنسانية الملحدة من رحم عقيدة التوحيد، وكأنها قضية بديهية لا تحتاج لبرهنة ولا إقناع، فكيف به أعتنقها معتمدًا فقط على نظريات غير مبرهنة، وأراء نظرية لفلاسفة ومفكرين، هم أقرب إلى التطرف الفكري من الاعتدال، لأنهم لم يستخدموا المنهج الديني لنقد الخطاب الديني، بل عمدوا إلى أقوال الكهنة، والتفسيرات المحرفة لبضعة قساوسة أو رهبان، ليلتمسوا لإلحادهم أساسًا مزعومًا، بدليل عدم تحول أغلب الموحدين (من المسيحيين) إلى ملحدين؛ بل أن العقل الواعي السليم يرفض تمامًا فكرة أن التوحيد يؤدي إلى الإلحاد، بهذا النهج الغامض، فجميعهم يفتقدون لدليل إقناع، ويكتفون بالجنوح على المعتاد، اعتمادًا على قناعتهم الشخصية، ومكانتهم العلمية والاجتماعية، ابتداعًا لعبقرياتهم الشخصية، لنشر أفكار غريبة عن الروح السائدة، ومنافية للحقيقة الدامغة.

إن ما تدعو إليه الفلسفة الإنسانية من نزعة إنسانية، ليست ببعيدة عما سبق ودعت إليه فلسفة " فردريك نيتشه Friedrich Nietzsche "[C]؛ بل تُعد تكرارًا للأفكار نفسها، ومحاولة لتأصيل فكرته عن موت الإله، ومطالبته بضرورة ظهور الإنسان الأعلى، واعتماد البشرية على نفسها، في تقرير مستقبلها، ولكن بدون إعلان " نيتشه " للإلحاد، ولم يدعو لنشره.

الأول (الآب) فلا يشاركه في الأزلية ولا الأبدية، فهو أقرب إلى الإنسان الأرضي، وهو مخلوق من قبل الأقنيم الأول مثله كمثل الأقنيم الثالث (الروح القدس، وليس هناك إلهي سوى الله الآب وحده، وهذا هو أساس حركة الموحدين، سواء في أول ثلاثة قرون ميلادية، أوعودة ظهورها من جديد في عصر النهضة.

[A] كانت عودة ظهورها، حين ظهر " سوسنس " الموحد في بولونية، وكان له أتباع يُعرفون بالسوسنيون أنكروا التثليث، ونادوا بالتوحيد، وفر بعضهم من الكنسية إلى سويسرا، ونادى "سرفيتوس " بالتوحيد في اسبانيا فأُحرق حيًا عام 1553م، وكان يقول في كتابه " أخطاء التثليث ": إن أفكارًا مثل الثالوث والجوهر وما إلى ذلك إنما هي اختراعات فلسفية، لا تعرف عنها الأسفار شيئًا؛ كما ظهر في ألمانيا مذهب الأنابا " ست " الموحد، ولكن استطاعت الكنيسة سحقه، ثم ظهرت جمعيات تحارب التثليث، منها الحركة المضادة للتثليث، وأنشأت في شمال إيطاليا في أواسط القرن السادس عشر، تلتها الحركة المعادية للتثليث، والتي ترأسها الطبيب المشهور"جورجيوبندراثا "عام 1558م، وفي عام 1562م عقد مجمع" بيزو"، وكان القساوسة يتكلمون عن التثليث فيما كان غالبية الحضور من المنكرين له.

[B] كتب وقتها " كورتيس ريس " خطبة بعنوان " رؤية ديمقراطية للدين " عن حرية العقيدة، وعن التجديد في الخطاب الديني، وكان وقتها (1915م - 1919م) يشغل منصب وزير كنيسة " دي موين " في ولاية " أيوا " الأمريكية، والتي تعرف للآن بتاريخها المساند للأقليات والمضطهدين دينيًا، فهي أول كنيسة أقرت زواج المثلية الجنسية، ولا غرابة إذن أن نعرف أن ما أثارته خطبة " كورتيس ريس " من صدام بين الموحدين ومخالفيهم في الرأي، تَمخض عنه في النهاية ميلاد معتقد الإنسانية (الإلحاد).

[C] فريدريك فيلهيلم نيتشه : Friedrich Nietzsche (1844م – 1900م) فيلسوف وشاعر ألماني، من أبرز الممهدين لعلم النفس المعاصر، له العديد من المؤلفات النقدية، حول المبادئ الأخلاقية، والنفعية، والفلسفة المادية المعاصرة، واتهم بالإلحاد بسبب فكرته عن موت الإله.

يتضمن كتاب " هكذا تكلم زرادشت " للفيلسوف" نيتشه " فكرة الإنسان الأعلى، وهورواية يَضمُر " نيتشه " فيها أهم أفكاره الفلسفية، من خلال روايته المستوحاة من قصة الحكيم الإيراني القديم " زرادشت Zoroaster "، الذي ترك محرابه، ونزل من أعلى الجبل بعد سنوات من التأمل ليرشد الناس، إلى ضرورة ظهور الإنسان الأعلى، ويدعوهم إلى الرؤية المستقبلية للإنسان الأعلى، المنحدر من أصول الإنسان الحالي . وهي رؤية أساسها أخلاقي وليست مادية جسمانية، لأن الإنسان الأعلى ثاقب العقل، سديد التفكير، قوي البنية، والأهم أنه محارب، ومخاطر شجاع، وذكي. وقبل أن يَحكي " زرادشت " مشهد (الدفن)، الوداع الأخير للإله - سبحان الله وتعالي -نجده يتعجب من رجل عجوز يلتقي به، خلال تجوله لإرشاد الناس، فيقول: " أيُعقل أن هذا الرجل لم يعلم أن الله قد مات – سبحان الله عما يصفون -، وأن جميع الإلهة قد ماتت؟! " (وهذا بالطبع يحتاج لتأويل بأن على البشرية أن تعتمد على نفسها وقدراتها الذاتية، وتكف عن التواكل على خالقها الذي منحها العقل كخاصية تمكنها من تقرير مصيرها، وتحمل مسئوليات أفعالها)، وفي المقابل نجد " زرادشت " يُمجّد ويُعجب بشخص " البهلوان "؛ لأنه يعيش حياته برجولة وشجاعة ومخاطرة. وهكذا يمضي " زرادشت " ليعبر عن أهم أفكار " نيتشه " الفلسفية، الداعمة للنزعة الفردية الأوربية، منطلقًا من الاهتمام الكبير بالفرد؛ حيث يري أن وجود المجتمع وأهميته تتركز، في خدمة وإنتاج أفراد متميزين ليكونوا عباقرة وأبطالًا قادرين على صنع مستقبل البشرية.[19]

أتضح مما سبق أن فلسفة " نيتشه " لم تكن تحمل أي دعوة للإلحاد؛ إنها رؤية مستقبلية تدعو البشرية للتحرر من العبودية، والتخاذل بالاعتماد على الآلهة، وأن تعتمد على (قدرتها العقلية) ذكائها لتحتل مكانتها اللائقة بالإنسانية، بين الكائنات الأخرى مُحققة غاية وجودها الفعلي، عمارة الأرض، وتَحَضُر البشرية. وبهذا يتضح أن دعوة فلسفة " نيتشه " بالثقة والإيمان بقدرات الذات الإنسانية وعقلها، وضرورة تحررها، لاعتمادها على إمكاناتها الذاتية، لكي تحقق بذاتها مصيرها وإنسانيتها المتعالية، التي لا تتضمن بالضرورة الإلحاد كعقيدة؛ بل تكتسب تلك الثقة من عدم تعارضها مع الهدف من وجودها، تحقيقًا لحكمة خالقها، وتنفيذًا لمبدأ خلقها (التكليف الإلهي). فما الإلحاد سوى نتيجة ضرورية (أوقل ضرورة منهجية) ناتجة عن الفهم الخاطئ لطبيعة العلاقة بين الألوهية والإنسانية؛ فهي ليست عبودية بمعني التسلطية؛ بل التماس الهدايا الإلهية بعدم تكبر الإنسانية، كي لا تنحرف بغرورها عن هدف الإنسانية، وحتى لا تنحدر البشرية لتسقط في هاوية النهاية، أو العدم الذي حذر منه مفكرو العقود القليلة الماضية[A] بعد تجربة الحداثة التي ظهرت في تساؤلات " ما بعد الحداثة "، وما نتج عن تسلط العلم و بربريته على البشرية.

نجد أيضًا نموذجًا فلسفيًا آخر قد لا تصمد أمامه مزاعم " لامونت " الإلحادية؛ حيث تتجلى وتنبثق دعائم المنهج المناسب لبحث موضوعات العقائد، وحقيقة وجود إله خالق لهذا الكون، إنها فلسفة الحياة لرائدها الفيلسوف " هنري برجسون Henri Bergson "[B]، الذي أسس فلسفته على فكرة الدفع الحيوي، وهومن أكثر المؤمنين بنظرية " داروين " التطورية، حيث يحاول في كتابه " التطور الخلاق "[20] أنه يقدم دليلًا عكسيًا ليؤكد صدق فرضها؛ فهو يفسر

[A] See, (Fourastie` J.: " Les Conditions de l' esprit scientifique ", Ed, Callimard, Paris, 1976, p 62, 197 – 198). And, (Bernanos G,: on , Domenach : " Esprit", Mars 1973, p, 698.

[B] الفيلسوف الفرنسى هنري برجسون - Henri Bergson (1859م – 1941م) حصل على جائزة نوبل للآداب عام1927م، من أهم فلاسفة العصر الحديث، وحاول بفلسفة الحياة أن ينقذ القيم التي أطاح بها المذهب المادي، ليؤكد إيمانًا لا يتزعزع بالروح، من أهم مؤلفاته " محاولة في الوقائع المباشرة للوجدان"، و" المادة والذاكرة "، و" التطور الخلاق "، و" منبعا الأخلاق والدين "، و" الفكر والمتحرك "، و" الضحك "، و" الطاقة الروحيّة " .

وجود الكائنات الأدنى (كالحشرات، والطفيليات، والحيوانات الضارة) بأنها بقايا أو مخلفات للكائنات الأعلى والأرقى (التي تطورت)، وخلفت تلك البقايا لتظل شاهدًا على جذورها التطورية، وهي أيضًا دليل على عدم استجابة تلك الكائنات المتخلفة للدفعة الحيوية، لذا ظلت وستظل خارج عملية التطور الخلاق.

فهل يمكن قبول أن إيمان " برجسون " بالتطورية اضطره لأن يُلحد أو يدعو للإلحاد؟ وللإجابة على هذا السؤال يجب علينا الإشارة إلى مجموعة الأفكار التي ضمّنَها " برجسون " كتابه " منبعا الأخلاق والدين "[21] -لعلها تكون كافية لدحض مزاعم " لامونت " الإلحادية - والتي سنحاول اختصار أهمها في الاقتباسات التالية:

1 - في مقارنته بين الدين الساكن والدين المتحرك نجده يقرّ أنه بالرغم من اختلافهما في الطبيعة والمرتبة، والمصدر، إلا أنهما يلتقيان حول فكرة وجود الإله والتوجه إليه، فوجوده يُضئ نفوسًا ممتازة، ويبعث فيها الحماسة (كطاقة روحية)، فيضرب على هذا مثلًا مُفعَمًا بالمعاني العميقة، حيث يشبههما (أرباب الدين الساكن وأرباب الدين المتحرك) بشعبين يؤمن كل منهما بإله - وهنا قد يحمل الإله المعنى القومي أم الوثني - وهما يتحاربان، ويزعم كل منهما أن إلهه هو إله جميع البشر، ولو رأوه جميعًا لتوقفوا فورًا عن القتال، لأنه خالقهم جميعًا.

وهذا يوضح ليس فقط إدراك " برجسون " لأهمية المنهج المناسب لموضوع دراسته؛ بل أيضًا التناسق المنهجي والمنطقي، بين النتائج التي توصل إليها، وبين مقدماته، وتحليلاته، ومسلماته التي تنم بحق عن فهم واضح لموضوعه.

2 -بعدما يبحث " برجسون " في الجذور البعيدة لمعتنقي فكرة الحياة الآخرة (أو الأبدية)، ويستشهد بشهادة المؤرخ " هيرودوت Herodotus "[A] عن الديانة المصرية القديمة واعتقادهم القوي في الحياة الآخرة، والإعداد لها، وأثر ذلك على الفكر اليوناني؛ فبجانب القفزة الفلسفية كانت هناك حركة عقائدية، بلغت تمامها في الفكر الهيليني، حيث ادعت أنها تفوق العقل المحض، وربما هي مبعث الوحي الأول للأفلاطونية. ويستخلص " برجسون " مما سبق أن ثمة قوة فوق العقل، هي التي خلقت هذا التطور العقلي، ثم انتهت به إلى غايته، أي إلى ما وراء العقل، ويشبه " برجسون " عملية الخلق هذه بالكيفية المنتظمة، والبطيئة التي يتكون بها الطمي، بالقوى الاندفاعية غير المرئية، التي تُحدث الطمي؛ فالطمي يُري بالعين، في حين أن القوة التي أحدثته لا تُرى بالأعين.

وبهذا يكون " برجسون " قّدم دليلًا على أن الوجود الفعلي لكل ما وراء العقل، قد لا يُرى ولكن العقل لا يمكن أن ينكره؛ لأن العقل ذاته ثمرة هذه القوة غير المرئية، فأصبح على يد " برجسون " ليست الرؤية دليلًا على الوجود، فليس بالضرورة أن جميع الموجودات تكون مرئية، فعدم رؤيتنا لا ينفي وجود موجودات لا تُرى بالعين، فهناك موجودات لا نراها ولكننا نُدرك وجودها (كالجاذبية الأرضية، والرياح، والذرة، والكهرباء، والروح ...)، بما كانت هي سبب وجوده، أو حدوثه، والأهم هنا أن " برجسون " أسس مفهومًا جديدًا لما وراء العقل (أو الميتافيزيقا)، حين جعلها مرتبة أعلى من العقل ذاته، وإن كان الوصول إليها للتيقن منها، سبيله الجدل العقلي والتجربة الصوفية.

[A] هيرودوت -Herodotus : مؤرخًا إغريقيًا يونانياً آسيويًا عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

3 - بعدما أرجع " برجسون " مصدر الدين المتحرك إلى التجربة الصوفية، نجده يُعرّف حالة التصوف بأنها اتصال بالجهد المبدع (وهو عطاء من الله، إن لم يكن هو الله ذاته)، الذي يتكشف في الحياة، فهو اتحاد جزئي، يُكمل بهذا الجهد فعل الله، فالصوفي الحقيقي هومن يتخطى حدود مادية النوع البشري. و" برجسون " يرى أن هذه الحالة الصوفية تنطبق على " أفلوطين " فلقد أتيح له أن يرى الأرض الموعودة، دون أن يطئها، فقد بلغ حالة من الوجد تشعر فيها النفس – أو تعتقد بأنها تشعر-بأنها في حضرة الله، وقد أُنيرت بنوره. إلا أن " أفلوطين " لم يتجاوز تلك المرحلة إلى المرحلة التي يتبدل فيها التأمل بالعمل، باتحاد إرادة الإنسان بإرادة الله.

وهذا يعني أن تجربة التصوف ما هي سوى جهد نابع عن الدفعة الحيوية، كطاقة روحية تَعُمها القدرة الفائقة على العطاء المستمر، وهي ليست فقط الدليل على وجود الله؛ بل هي أيضًا الطريق المؤدية للتيقن من وجوده، وأخيرًا هي الطريق إلى الاتحاد بإرادة الله، وهي أيضًا تكملة لفعل الله وتحقيق لإرادته، بحسب ما يقرره " برجسون " بمنهج الدراسة المناسب لدراسة ظاهرة التصوف.

4 -وبعدما يسرد " برجسون " طُرقًا شبيهة بالتصوف أو للتصوف الناقص، نجده يُحدد المفهوم الناضج والكامل للتصوف بتجارب كبار المتصوفة المسيحيين، حيث انطووا على أنفسهم يتحفزون لجهد جديد كل الجدة، ليجتاحهم تيار واسع من الحياة، لتنطلق من خبرات حياتهم الفائضة قوة خارقة في التفكير، والعمل. ومن الأمثلة الدالة على حقيقة التصوف الحق، أعمال أناس مثل القديس " بولس "، والقديس " فرنسوا " و"جان دارك"، والقديسة " تيريزا " والقديسة " كاترين دوسيين "، وغيرهم.

إذن تمكّن " برجسون " بمنهجه التحليلي المناسب، من تنقية مفهوم التصوف كتجربة دينية، تختلف في كمالها وسموها عن التصوف القديم، ليوضح الفروق الأساسية التي ما بين الدين الطبيعي والدين المتحرك.

5 -من فحص وتحليل ودراسة " برجسون " لتجربة التصوف الديني، نجده يخلص إلى أن غاية المتصوف ليس حالة الوجد (الحب الإلهي والاتحاد بإرادة الله)، لأنها حالة من الانسجام (أو التناغم، أو التسليم النهائي والسلام اللا متناهي) تدفعه دفعة جديدة، بمعنى أن الاتحاد بالله مهما يكن وثيقًا، فلا يكن كليًا، ولا نهائيًا، وفيه تتلاشى المسافة بين الفكر وموضوعه، لأن المُحددات التي كانت تقيم المسافات، وتقيّسها قد انهارت، فلا يبقى انفصال أساسي بين المحب والمحبوب، فالله حاضر والفرح غامر لا حدْ له. لكن في حال إغراق النفس في حب الله بالفكر والعاطفة، فإن شيئًا منها يظل في الخارج، وهي الإرادة وفعلها الآن يكون صادرًا عنها. فحياتها إذن لم تصبح إلهية بعد، وهي تُدرك هذا تمامًا، ولهذا تقلق قلقًا غامضًا، يميز حالة الصوفية الكاملة، ويكون هذا دليلًا على أن الوثبة مضت إلى أقصى مدى لها.

وهذا يوضح أن " برجسون " قد توغل واجتهد كثيرًا، في دراسته المستفيضة، لأساس ظاهرة الدين المتحرك، ليقدم لنا مفهومًا عميقًا لتجربة التصوف الديني، التي بها فقط نبلغ الاستدلال على وجود الله، حين يتم للمتصوف معاينة الحضرة الإلهية، بدون أن تمتزج ذات المتصوف بالذات الإلهية؛ بل تظل لذات المتصوف إرادتها المدركة تمامًا لفعلها، الذي هو إرادة الخير للبشرية، وإشعاع النور بنشر المحبة الإلهية.

6 - أما عن الحب الذي استحوذ عليه المتصوف، فيرى " برجسون " أنه ليس حب الإنسان لله فحسب ؛ بل هو حب الله للبشرية، فمن خلال الله، وبالله يحب (المتصوف أو المثل الأعلى) الإنسانية كلها حبًا إلهيًا، وهذا ليس حب الأخوة في الإنسانية- الذي يوصي به الفلاسفة باسم العقل- لاختلاف طبيعته الإلهية، وهذا ما يحمل المثل الأعلى أمانة بثه، ونشره في نفوس الأفراد والجماعات وصولًا للإنسانية، بالرغم من المتاعب التي يواجهها المثل الأعلى، ويتحملها في سبيل نشره لهذا الحب الإلهي؛ فالمثل الأعلى هو المتحد بحب الله لخلقِهِ، الحب الذي خلق كل شيء؛ إنه يريد بعون الله أن يتم خلق النوع الإنساني، محاولًا أن يجعل من الإنسانية ما كان يمكن أن تَكونه، لو استطاعت أن تبلغه، بغير عون الإنسانية نفسها لنفسها، أو ما يجب أن تكونه الإنسانية في طريق رُقيّها وسُموها.

إذن لم يدخر " برجسون " جهدًا، في توضيح وشرح إيمان المثل الأعلى) الصوفي)، الواثق بعمله وواجبه والأمانة التي يَحملها، ودوافعه القوية لنشر رسالته الأخلاقية، ليُنجز مهمته الأساسية، في سبيل تقدم الإنسانية روحيًا، ومعنويًا، وحضاريًا.

هل يُقبل أي زعم بأن كل ما يعالجه ويحلله " برجسون " هنا ما هو إلا ميتافيزيقًا دينية ؟ كلا بل هي التجربة الدينية وتحليلًا لحالات شُعُورية - بمنهجية علمية دقيقة - تحويها النفس الإنسانية، خلال حياتها بالدفع الحيوي والوثبة الروحانية، التي تتجاوز بنا حدود العقلانية. فلا يُنكر هذا إلا كل من لم يُدرك تلك التجربة، أو حتى لا يؤمن بوجودها، فقد ضل بالتأكيد سبيله لبلوغها داخل مكامن النفس الإنسانية! ألا تُمثل تلك الحالات شروط وجود النفس وإمكاناتها؟ ومكوناتها الأساسية، والضمانة لاستمرار وجودها، فهي التي تدفعها للسمو الروحاني، والرقي المعنوي، والتقدم المادي.

وهذا ما يؤكده " برجسون " حيث يري أن الشيء الجوهري في الدين الجديد (المتحرك) هو انتشار الصوفية الحقيقية؛ وأن هناك نوعًا ساميًا من التبسيط العلمي يُحافظ على أطر الحقيقة العلمية (للتجربة الصوفية)، ويُتيح للنفوس ضئيلة الحظ من الثقافة أن تَتَمثله جملة، إلى أن يُفيض لها مجهودٍ أعلى يكشف لها عن التفاصيل، ويجعلها تَنفُذ إلى معناها نفاذًا أعمق.[22]

7 - يرى " برجسون " أنه على الإنسان أن يكسب قوته بعرق جبينه، فما وجد عقله إلا ليزوده بأسلحة وأدوات تُعينه في عمله، ونضاله؛ فكيف والحال هكذا يُمكن للإنسانية أن تتوجه للسماء، وهي في جوهرها مشدودة للأرض؟ فلن يتأتي للبشرية أن تحقق ذاتها إلا إذا طبقت إحدى طريقتين تباعًا أو معًا، أولاهما أن يَقوى العمل العقلي إلى حدٍ كبير، وأن يَذهب به إلى أبعد مما أرادت له الطبيعة، فتحل محل الأداة البسيطة مجموعة واسعة من الآلات تستطيع أن تُحرر النشاط الإنساني، وأن يدعم هذا التحرر تنظيم سياسي واجتماعي يكفل للآلية وظيفتها الحقيقية. وتلك وسيلة خطرة لأن الآلية إذا نمت قد تنقلب على الصوفية، وهي الطريقة الثانية الكابحة لجنوح العقلانية.

إذن لا يختلف " برجسون " مع " لامونت " و" الاتجاه الإنساني " ولكنه يطرح بالمنهجية العلمية المناسبة سبيلًا آخر لتحقيق نفس الهدف الإنساني -ولكن بدون إلحاد –و هو أن تُحقق الإنسانية ذاتها بنفسها . وسبيل الإنسانية في تحقيق هذا الهدف ليس فيه إلحاد بقدر ما فيه إيمان بمحدودية العقل، وثقة بإمكانيات النفس الإنسانية وطاقاتها، دون خضوع أو تسلط. هذا وإن كان " برجسون " يوجه نقدًا للواثقين بقدرات العقل ثقة مطلقة؛ لأنه يرى في هذا فرض سيطرة آلية

على الإرادة الإنسانية، وهذا يعني أن البشرية إذا ما سلمت مستقبلها للعقل فقط؛ فستتحول حيويتها إلى ديناميكا آلية. وهو في هذا محق جدًا، وموفق في الكشف عن أهم متناقضات الاتجاه الإنساني، حيث النتيجة الحتمية لفكرة الانتخاب الصناعي، ما هي إلا التوجيه العقلي، أو فلنقل بلغة " برجسون " التسليم والإذعان لقوانين العقل واختياراته.

المحور الثانى: العلم يدحض الإلحاد

يجب الاستشهاد بمقتطفات لشهادات بعض العلماء المعاصرين تدحض دعوى الملحدين - عن خلق الطبيعة نفسها بنفسها - لتقويض أي مرتكز لفكرة الإلحاد، لتُدحض بالحجة الدامغة (بلا تأويل، ولا زعم، ولا ظنون)، وكذلك لتوضيح رأي العلماء، أهل التخصصات العلمية المختلفة، في ثبوت وجود الله كخالق للكون وكائناته، بالأدلة التي يسوقها كل منهم على حدة.

1 - لقد كتب " جورج هربرت بلونت George Herbert Blount "[A] بحثًا بعنوان " معقولية الإيمان The reasonableness of theism " ضمن كتاب " أدلة الله في الكون الممتد "[23]، قال فيه إنني أؤمن بالله ؛ بل وأكثر من ذلك، إنني أُوكلّ إليه أمري، ففكرة الألوهية بالنسبة لي ليست مجرد قضية فلسفية، بل إن لها في نفسي قيمتها العملية العظمى، وإيماني بالله جزء من صميم حياتي اليومية، وكذلك الحال فيما يتعلق بوجود الله، فوجوده تعالى أمر بديهي من الوجهة الفلسفية، والاستدلال بالأشياء على وجود الله - كما في البرهان الهندسي- لا يرمي إلى إثبات البديهيات ولكنه يبدأ بها، فإذا كان هناك اتفاق بين هذه البديهية وبين ما نشاهده من حقائق الكون ونظامه فإن ذلك يُعد في ذاته دليلًا على صحة البديهية التي اخترناها (أي وجود الله) أما عن الأدلة الكونية على وجود الله خالق هذا الكون تقوم على أساس أن الكون متغير، وعلى ذلك فإنه لا يمكن أن يكون أبديًا (ولا أزليًا)، ولا بد من البحث عن حقيقة أبدية عليا، أما عن أدلة الحكمة، فيري أنها تقوم على أساس أن هناك غرضًا معينًا أو غاية أو حكمة من وراء هذا الكون (وما به من نظام)، ولا بد لذلك من حكيم أو مُدبر وراء طبيعة الإنسان الخلقية، فالشعور الإنساني في نفوس البشر إنما هو اتجاه إلى مشرّع أعظم، (وفي سياق نقده لموقف الملحدين) يراهم لا يستطيعون أن يقيموا دليلًا واحدًا على عدم وجود الله، ومن منطقهم أن الأدلة المقدمة لإثبات وجود الله لا تعتبر كافية من وجهة نظرهم، (ويستنتج أننا) نجد المؤمن يقيم إيمانه على البصيرة، أما الملحد فيقيم إلحاده على العمي. (ويتحدث بلونت عن نفسه كعالم) أنه مقتنع بأن الإيمان يقوم على العقل، وأن العقل يدعو إلى الإيمان، وإذا كان الإنسان يعجز أحيانا عن مشاهدة الأدلة، فقد يكون ذلك راجعًا إلى عدم قدرته على أن يفتح عينيه، (ولهذا ينصح الملحد قائلًا) فإذا كنت في شك من أمره تعالي فإليك الحل: أتجه إليه وسوف تجده.

هذا رأي عالم، لا تحركه مشاعره، بقدر ما تحمله رؤيته العلمية على حقيقة الإيمان وأدلته الدامغة، في مقابل تهافُت موقف الملحد، ومرجعه في هذه الشهادة هي البصيرة، واحتكام العقل للشواهد المنطقية، المنظورة في الكون وفي أنفسنا.

[A] عالم أمريكي معاصر في الفيزياء التطبيقية، وكبير المهندسين بقسم البحوث الهندسية بجامعة (كاليفورنيا)، حاصل على درجة الماجستير من معهد كاليفورنيا التكنولوجي.

2 - وقد كتب: " جون كليفلاند كوثران " [A]، مقالًا بعنوان " النتيجة الحتمية " يقول فيه " قال لورد كيلفي - وهومن علماء الطبيعة البارزين في العالم - هذه العبارة القيمة ((إذا فكرتَ تفكيرًا عميقًا فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله)) ولابد أن أعلن عن موافقتي كل الموافقة على هذه العبارة." [24]

" إن ملاحظة هذا الكون ملاحظة تقوم على الخبرة، والذكاء، وتدبر ما نعرفه عنه من جميع النواحي سوف تقودنا إلى التسليم بوجود ثلاثة عوالم من الحقائق، وهي : العالم المادي (المادة) والعالم الفكري (العقل) والعالم الروحي (الروح)، وإن ما تقدمه الكيمياء في هذا الميدان لابد أن يكون مُحدودًا لأنه قليل من كثير في هذا المجال."[25]

" وقد أثبتت جميع الدراسات العلمية بصورة ثبتت في الماضي، ولا تزال ثابتة في الحاضر أن سلوك أي جزء من أجزاء المادة مهما صغر أو تضائل حجمه، لا يمكن أن يكون سلوكًا عشوائيًا، (وهذا كفيل بدحض مزاعم لامونت الإلحادية بعشوائية تطور المادة طبيعيًا واعتماده على مبدأ الصدفة في تفسيره لعملية الانتخاب الطبيعي) ... وليس من المعقول أن يكون لدي الكيميائيين كل هذه الثقة في القوانين الطبيعية، لو أن سلوك المادة والطاقة كان من النوع العشوائي، الذي تتحكم فيه المصادفة، وعندما يتم أخيرًا إدراك الأسباب التي تجعل هذا القانون الطبيعي عاملًا وتفسر لنا حقيقته، فإن أي أثر لفكرة العشوائية أو المصادفة في سلوك المادة أو الطاقة سوف يندثر اندثارًا تامًا."[26]

ثم يتناول " كوثران " بالتحليل عدة أمثلة علمية ليُؤكد بها على انتفاء صفة العشوائية عن سلوك جزيئات المادة، فيسرد نتائج ترتيب العالم الروسي " ماندااليف " للعناصر الموجودة على سطح الأرض- بحسب القانون الدوري لتزايد أوزانها الذرية ترتيبًا دوريًا- " ومن تشابه خواص العناصر الموجودة في كل مجموعة، نستنتج أن ما يحكم تجمعها هنا ليست المصادفة ولكنه القانون الطبيعي، الذي يحكم علاقات ذرات جزئيات عناصرها ببعض، لتكون عناصرها متشابه في خواصها، ومن جهة أخري يستدل من الفراغات التي تركها " ماندااليف " في جدوله لعناصر لم تكن معروفه في عصره، وكان قد تنبأ بخواصها طبقًا لموقعها المتروك في الجدول، وقد تم اكتشافها من قبل علماء آخرين من بعده، وتأكدت نبوءاته بمطابقة خواصها بالفعل، " فهل يبقي بعد ذلك مكان للاعتقاد في أن أمور هذا الكون تجري على أساس المصادفة؟ إن اكتشاف " ماندااليف " لا يُطلق عليه اسم المصادفة الدورية، ولكنه يسمي ((القانون الدوري))!" [27]

هل دليل علمي أدل من ذلك على حكمة وتدبير الخالق لمكونات هذا الكون؟ وأين علمية " لامونت " وأتباعه الملحدين من نتائج العلم الدامغة لفساد مزاعم إلحادهم ؟.

" وهل يمكن أن نُفسر على أساس المصادفة ما وصفه وتوصل إليه العلماء السابقون من تفاعل ذرات عنصر (أ) مع ذرات عنصر (ب)، وعدم تفاعله مع عنصر (جـ)؟ كلا إنهم قد فسروا ذلك على أساس أن هنالك نوعًا من الميل أو الجاذبية (التوافق أو المناسبة) بين جميع ذرات عنصر (أ) وجميع ذرات عنصر (ب)؛ ولكن هذا الميل أو الجاذبية منعدم بين ذرات عنصر (أ) وذرات عنصر (ج)."[28]

[A] من علماء الكيمياء والرياضة، أمريكي معاصر، دكتوراه من جامعة كرونيل – رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث – أخصائي في تحضير النترازول وفي تنقية التنجستين.

ثم يتناول أمثلة علمية عديدة مثل ثبات نظام أو قانون تكوين ذرات جميع المواد من نواة تحتوي على نيوترونات وبروتونات، يدور حولها إلكترونات بشكل يشبه تكوين المجموعة الشمسية، وتتنوع العناصر والمركبات، وتتمايز بحسب أعداد البروتونات والنيوترونات الموجودة بالنواة، وعدد الإلكترونات وتنظيمها حول النواة، فكل هذا النظام لا يمكن أن يكون وليد الصدفة، أو تحكمه المصادفة ؛ بل هي قوانين ثابتة تسري على المادة، أو على الطاقة .[29]

أليس هذا كافيًا لنسف الزعم بأن المصادفة هي التي تحكم تكون المادة، وتحولاتها في هذا الكون؟

" فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة، أم أنها هي التي أوجدت هذا النظام؟ وتلك القوانين ثم فرضتها على نفسها؟ لا شك أن الجواب سوف يكون سلبيًا ؛ بل إن المادة عندما تتحول إلى طاقة، أو تتحول الطاقة إلى مادة، فإن كل ذلك يتم طبقًا لقوانين معينة، . . . وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيلها للزوال أو الفناء، وبعضها يسير بسرعة كبيرة نحو الفناء، والآخر بسرعة أقل. وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية، ومعني ذلك أيضًا أنها ليست أزلية . . . . وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لابد أن يكون مخلوقًا، وهو منذ أن خُلق يخضع لقوانين، وسنن كونية مُحددة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان."[30]

" وعلى ذلك، فإن النتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل، ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقًا فحسب؛ بل لا بد أن يكون هذا الخالق حكيمًا عليمًا قادرًا على كل شيء (الله أكبر ولله الحمد)، حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره، ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود، تتجلي آياته في كل مكان. وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بوجود الله، خالق هذا الكون وموجهه"[31].

أين عقلية " لامونت " المنطقية -وأي ملحد آخر-من هذا الاستنتاج العلمي المباشر، من نتائج علمية واضحة للجميع؟

3 - كتب " دونالد روبرت كار "[A] مقالة بعنوان " موجهات الجيولوجيا "[32] نلخص منها أهم أفكاره، عن الأدلة الجيولوجية المُوجهة لنا للإيمان بوجود الله، وهي كتالي :-

يقول " دونالد ": " تتلخص النقاط التي تمس فيها دراسة الكيمياء الجيولوجية الفلسفة الدينية في نقطتين:

1 - تحديد الوقت الذي بدأ فيه الكون.

2 - النظام الذي يسُوده.

لكن نتائج هذه الطرق متقاربة إلى حدٍ كبير، وهي تشير إلى أن الكون قد نشأ منذ نحو خمسة بلايين سنة، وعلى ذلك فإن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليًا. ولوكان كذلك لما بقيت فيه أي عناصر إشعاعية. ويتفق هذا الرأي مع القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية. أما الرأي الذي يقول بأن الكون دوري (أي ليس له بداية بل هو أزلي)، أي إنه ينكمش ثم يتمدد، ثم يعود

[A] عالم كيميائي أمريكي معاصر، وهوأستاذ مساعد بحوث الكيمياء الجيولوجية بجامعة كولومبيا، التي حاصل منها على الدكتوراه، وأخصائي في تقدير الأعمار الجيولوجية باستخدام الإشعاعات الطبيعية.

فينكمش من جديد ...إلخ، فإنه رأي لم يُقم على صحته دليل، ولا يمكن أن يعتبر رأيًا علميًا؛ بل مجرد تخمين. ومن ذلك نرى أن القول بأن للكون بداية، يتفق مع ما جاء مثلًا في الإنجيل: (لقد خلق الله في البداية السموات والأرض)، وهو رأي تؤيده قوانين الديناميكا الحرارية والأدلة الفلكية والجيولوجية... فانتظام الكون ووجود القوانين الطبيعية، هما أساس العلم الحديث."

أليس هذا دليلًا علميًا يستند على أدلة العلم وقوانينه؟ وهل يحتاج الملحدون أدلة علمية أكثر من هذا تشهد على وجود خالق هذا الكون؟

"والكون المنتظم الذي يعتبر على درجة كبيرة من الأهمية، بالنسبة للمشتغلين بالعلوم، وهو ما يتفق مع ما تحدثنا عنه الكتب السماوية، من أن الله هو الذي أبدع هذا الكون، وهو الذي يمسكه ويحفظه أما إذا أعتقد الإنسان أن هذا الكون يقع تحت سيطرة إله مُشرع حكيم رحيم -لا مجرد مدير لجهاز إلى -فإننا نتقدم إليه بالصلاة والدعاء، لا لنغير خطته العظمي وسننه، ولكن لكي يُدبر -بحكمته الواسعة ومحبته لنا -الأقدار بحيث تفي بحاجاتنا "[A].

وأخيرًا فإن الكيمياء الجيولوجية التي أُدَرّسُها تُعلمنا أن ننظر إلى الأشياء نظرة واسعة، وأن نفكر في الزمان على أساس بلايين السنين، وإلى المكان نظرة تشمل الكون بأسره، وإلى العمليات المختلفة بحيث تشمل دوراتها الكون كله. إن مثل هذه النظرة إلى الأمور تجعلنا نزداد تقديرًا لعظمة الله وجلاله. أما غير المؤمنين فسوف يمتلئون رهبة ورعبًا، وقد يضطرون آخر الأمر أن يُسلموا بأن السموات تشهد بعظمة الله، وأن إحكامها يدُل على بديع صنعته.

إذًا لا مفر فالعلم يشهد والكون يؤكد على عظمة الخالق المبدع، فمن أين يأتي الملحد بكل هذا الجحود والإنكار؟

ويتجلى التوافق بين العلم والدين في ذلك النشيد الدينى، الذي أستمع إليه تتغني به الملايين في أمريكا، والذي ربما كان تأليفه من وحي الكشوف العلمية الحديثة، التي تمت في السنوات الأخيرة، ويقول هذا اللحن:

((يا إلهي العظيم، عندما أنظُر بعجب ورهبة إلى كل العوالم، التي صَنعتها يداك، وأُبصر النجوم، وأسمع هدير الرعد وزمجرته، عندئذ تتجلي لي قوتك في كل أرجاء الكون، عندئذ تغني روحي وتُناجي إلهي الكبير: ما أعظم إبداعك، ما أعظم إبداعك)).

لعل هذا دليلًا كافيًا مؤكدًا انتصار العلم للإيمان بالله، وانتشاره، كاشفًا عن زيف مزاعم الإلحاد.

4 - أما " كلود م . هاثاواي " [B] فقد كتب مقالًا بعنوان : " المبدع الأعظم "، يقول فيه: " الواقع أننا لا يجوز لنا أن نستبعد كثيرًا من المعتقدات التي تقوم على أساس الخبرة أو الممارسة، أوأن ننظر إليها على أنها لا تقوم على أساس عقلي، فنحن إذا فعلنا ذلك نكون قد انتقصنا من قدر الطريقة العلمية ذاتها، والأفضل أن نسمي مثل هذه المعتقدات (فوق فكرية)، فإنه قد لا يتفق مع العقل، والمنطق أن يكون ذلك التصميم البديع للعالم من حولنا من إبداع إله أعظم لا نهاية

[A] التوضيح لكاتب المقال نقلًا عن عالم الجيولوجيا " داوسن – Dawson " من حاشية مقاله ص (132): هكذا يتوجه المسلمون بالدعاء إلى الله تعالى فيقولون مثلًا (اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه)، أو(اللهم ألطف بنا فيما جرت به المقادير) .

[B] مستشار هندسي، أمريكي معاصر، حاصل على درجة الماجستير من جامعة " كلورادو"، ويعمل حاليًا مستشار هندسي بمعامل شركي جنرال إلكتريك، وهو أخصائى في الآلات الكهربائية والطبيعية للقياس، وهو مُصمم العقل الإلكتروني للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة " لانجلي فيلد ".

لتدبيره، وإبداعه وعبقريته؛ حقيقة أن هذه طريقة قديمة من طرق الاستدلال على وجود الله، ولكن العلوم الحديثة قد جعلتها أشد بيانا وأقوي حجة منها في أي وقت مضى.[33]

إذن العلماء المعاصرون في العلوم الحديثة يستدلون على وجود الله من خلقه، وأبداع تصميمه للكون، هذا التصميم البديع يشهد بلا نهائية جميع صفات خالقه.

إن التصميم، أو النظام، أو الترتيب، أوسمِّه ما شئت، لا يمكن أن ينشأ إلا بطريقين: طريق المصادفة، أو طريق الإبداع والتصميم، وكلما كان النظام أكثر تعقيدًا، بَعُدَ احتمال نشأته عن طريق المصادفة، ونحن في خضم هذا اللانهائي لا نستطيع إلا أن نُسلم بوجود الله.[34]

أما النقطة الثانية التي أريد أن أشير إليها في هذا المقام، فهي أن مصمم هذا الكون (الله) لا يمكن أن يكون ماديًا. وأنني أعتقد أن الله لطيف، غير مادي، وأنني أُسلم بوجود اللا ماديات، لأنني بوصفي من علماء الفيزياء أشعر بالحاجة إلى وجود سبب أول غير مادي. إن فلسفتي تسمح بوجود غير المادي، لأنه بحكم تعريفه لا يمكن إدراكه بالحواس الطبيعية، فمن الحماقة إذن أن أنكر وجوده بسبب عجز العلوم عن الوصول إليه، وفوق ذلك فإن الفيزياء الحديثة قد علمتني أن الطبيعة أعجز من أن تنظم نفسها أو تسيطر على نفسها؛ إن هذا الكون ليس إلا كتلة تخضع لنظام معين، ولابد له إذن من سبب أول لا يخضع للقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية، ولابد أن يكون هذا السبب الأول غير مادي في طبيعته.[35]

إذن مصمم هذا الكون وخالقه، هو الله اللطيف الخبير الذي لا تدركه الأبصار.

5 - كتب " أدوين فاست "[A] مقالًا، بعنوان " نظرة خلف قوانين الطبيعة "[36]، يدحض فيها القول بالمصادفة في تفسير نشأة الكون، التي بُنيت على نظرية التطور الذاتي، وذلك من خلال الكشف عن استحالة احتمال فرض المصادفة ضمن القوانين الطبيعية التي تحكم صدور الكائنات بخواصها الدقيقة، وانتظامها الدقيق، والراقي البديع.

كتب " فاست " بعدما تناول بالشرح نظرية الاحتمالات وكيفية استحالة انتظام ذرات الكائنات العضوية، وغير العضوية إلا بحسب قوانين ثابتة تحكمها خواصها الطبيعية قائلًا: وعندما تحاول عقولنا المحدودة أن ترتد إلى الوراء، وتبحث عن ساعة الصفر في تاريخ هذا الكون، نجدها تُسلم ضمنًا بأن لهذا الكون بداية، ولحظة معينة نشأت فيها الذرات الدقيقة، التي تتألف منها مادة هذا الكون. ولا بد أن تكون خواص هذه الجزيئات التي تُحدد سلوكها، قد ظهرت معها في الوقت نفسه؛ ومن المنطق السليم أن يكون السبب الأول الذي أوجد هذه الجزئيات، هو الذي أودع فيها صفاتها التي تُحدد سلوكها. ولا بد أن نسلم بأن قدرة الخالق وتدبيره وإحكامه، تفوق قدرة، وتدبير الإنسان؛ بل البشر جميعًا، ولوكان بعضهم لبعض ظهيرًا، فإذا انتقلنا إلى العالم العضوي، فإننا نلاحظ أن سلوكه يزداد تعقيدًا، وعلى ذلك فإن احتمال تفسير هذا السلوك على أساس المصادفة المحضة يتضاءل إلى حد لا نهائي. فالمواد الأساسية التي تدخل في بناء المواد العضوية هي الأيدروجين، والأوكسجين، والكربون، مع كميات قليلة من النتروجين والعناصر الأخرى، ولا بد أن تتجمع ملايين من هذه الذرات حتى تتكون أبسط الكائنات الحية. فإذا نظرنا إلى الأنواع الأخرى التي هي أكبر حجمًا، وأشد تعقيدًا، فإن احتمال تألف ذراتها على أساس المصادفة المحض يقل إلى درجة لا يتصورها العقل، وبالرغم من ذلك،

[A] عالم الطبيعة، الأمريكي المعاصر، حصل على درجة الدكتوراه من جامعة " أوكلاهوما"، وهو عضو هيئة تدريس بقسم الطبيعة فيها، ويعمل حاليًا بالطاقة الذرية.

فإذا تصورنا أن كل ذلك يتم بمحض المصادفة التي تجعل الجزئيات تتجمع بصورة معينة لكي تُكون ذرات يتألف بعضها مع بعض لكي تُكون أجسامًا تقوم بدورها بالتكاثر، وأداء سائر وظائف الحياة، ويكون لها عقل وتفكير، دون أن يكون وراء كل ذلك إله مدبر هو الذي خلق فصور فأبدع، فإن ذلك ما لا يقبله عقل أو يتصوره فكر. وحتى إذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أخذنا بفرض مستحيل من الوجهة العملية، وطرحنا وراء ظهورنا فرضًا منطقيًا بسيطًا، ألا وهو وجود الله، الذي أنشأ هذا الكون وبدأه بقدرته. فالله هو المبدئ. كلمات بسيطة، ولكنها بساطة تتسم بالجلال. إنه جلال الحق وقدسيته. [37]

وبهذا يكون العلم قد كشف عن صفات الله خالق هذا الكون بقدرته، وهو الذي قدر خصائص عناصره وذراته، إذن العلم انطق واستقرأ ذرات الكون وجزئياته، لتنطق بالحق أن الله حق.

6 - أما " أندروكونواي إيفي Andrew Conway Ivy "[A] فقد كتب بحثًا بعنوان " وجود الله حقيقة مطلقة " نوجز منه بعض أفكاره، التي يُثبِت خلالها حقيقة وجود الله، بأدلة مقنعة تمامًا؛ بل ويدحض مزاعم الملحدين، من خلال واقع تخصصه كعالم.

فنجده تحت عنوان " إنكار وجود الله لا يستند إلى دليل منطقي" يقول إن أحدًا لا يستطيع أن يُثبت خطأ الفكرة التي تقول ((إن الله موجود))، كما أن أحدًا لا يستطيع أن يُثبت صحة الفكرة التي تقول (أن الله غير موجود)؛ وقد يُنكر مُنكر وجود الله، ولكنه لا يستطيع أن يؤيد إنكاره بالدليل، ولا بد في هذه الحالة أن يستند شكه إلى أساس فكري. لكن أنا لم أقرأ ولم أسمع في حياتي دليلًا عقليًا واحدًا على عدم وجوده تعالى؛ وقد قرأت وسمعت في الوقت ذاته أدلة كثيرة على وجود الله، كما لمست بنفسي بعض ما يتركه الإيمان من حلاوة في نفوس المؤمنين، وما يُخلفه الإلحاد من مرارة في نفوس الملحدين.

والبرهان الذي يطلبه الملحدون لإثبات وجود الله هو البرهان نفسه الذي يُطلَب كما لوكان الله تعالي شبيهًا بالإنسان أو شيئًا ماديًا، أو حتى تمثالًا من التماثيل، أو صنمًا من الأصنام، (سبحان الله وتعالي عما يظنون). ولوكان لله مثل هذا الوجود المادي لما وجد هنالك مجال للشك في وجوده، ولكن الله أراد ضمن ما أراد أن يختبر عقولنا حول الإيمان به، فترك لنا حرية الاختيار لكي يؤمن به من يؤمن، وينكره من يُنكر، وعليه أن يتحمل النتائج. ومعظم الملحدين والمارقين من الأديان، ينظرون إلى الله كما لوكان بشرًا يمكن التعامل معه تعامل الأنداد فيقولون مثلًا: سوف أعتقد بوجود الله إذا شفاني من مرضي، أو إذا أنزل المطر، أو قضى حاجتي، أو إذا أوقف الفيضان، أو إذا أنهى الشر والظلم من الكون، وقد يقول بعضهم: إذا كان هنالك إله عادل ما أصابني وجع في أسناني. ومعنى ذلك بعبارة أخري أنني أؤمن بالله إذا بني الكون أو عدله تبعًا لخطتي الخاصة، التي تقوم على الأنانية وتبعًا لصالحي الشخصي."[38]

تلك هي البصيرة المستنيرة، استدلال عقلي، واستنباط منطقي، لإقامة الحجة المنطقية والدليل العقلي، على الوجود الإلهي المتحقق، كحقيقة لا يُنكرها عقل ولا ينقضها منطق.

وهذا بالضبط ما يطلبه الملحدون، من منطلق أحادية المنظور المادي عندهم، وهو المنظور الأوحد لديهم، في تصورهم المادي للعالم، والوجود المادي. وهذا ما يُفنده " أندروكونواي "،

[A] عالم فسيولوجي، أمريكي معاصر، عمل منذ عام 1925 - 1946 كرئيس قسم الدراسات الفسيولوجية والصيدلية بجامعة " نورث وسترن " وبين عامي 1946م – 1953م أستاذ في كلية الطب ووكيل الكلية في جامعة " إلينوي "، وبعدها أستاذ الفسيولوجيا ورئيس قسم العلوم الإكلينيكية، بكلية الطب بجامعة " شيكاغو" .

بكشفه لعقم نظرتهم الإلحادية المستندة على النظرة المادية، التي لا يمكن أبدًا أن تمكنهم من الوصول إلى إدراك الوجود الحقيقي للذات الإلهية. وذلك لأن " أندروكونواي" من تحليله للبرهان الذي يطلبه الملحد، يكشف عن المغالطة التي يقوم عليها منطقهم المادي، حيث الملحدون لا يعتقدون إلا بالدليل والوجود المادي فقط، وهذا ما لا يتفق مع واقع وطبيعة الوجود الحقيقي للذات الإلهية وإلا لوكان وجودها ذات طبيعة مادية ما احتاج لدليل، ولا برهان عليه - لذا تجد الملحدين يفتقدون الحجة المادية التي تتسق مع منطقهم المادي (لتجعله صحيحًا)، ولكن البرهان العقلي المنطقي السليم، يرفضونه لأنه دليل على فساد منطقهم، في إثبات الوجود الحقيقي للذات الإلهية.

ويستمر " أندروكونواي" في تفنيده لموقف الملحد، الذي يأبى عقله استخدام طريقته المنهجية في إثبات الحقائق المادية، خصوصًا وهي تعتمد على المبادئ الفكرية نفسها، التي يقوم عليها الإيمان بوجود الله، ليكشف بذلك، تناقضًا جديدًا يتضمنه موقف الملحد، من مسألة الاعتقاد بوجود الله، فنجده يقول: إن الاعتقاد بوجود الله يقوم على المبادئ الفكرية نفسها التي يقوم عليها الإيمان بمستقبل التقدم المادي، وهي الأسباب نفسها التي تجعلني وتجعلك نعتقد بأن الشمس سوف تشرق صباح الغد، أو أنني سأعيش غدًا، وأذهب إلى عملي، وأستمتع به. فإذا كان التفكير هو وسيلة التقدم المادي، فلماذا لا يكون كذلك وسيلة للتقدم الروحي والأخلاقي؟

فإذا لم تكن قادرًا على إثبات وجود الله بطريقة ناجحة، فقد تُسلّم بوجوده على أساس الإيمان والقبول، أو تقول إنه أمر واضح لا يحتاج إلى دليل، وتفعل كما فعل " توماس جيفرسون "[A] عندما كتب وثيقة الاستقلال الأمريكي بالصورة التالية: ((إننا نعتقد أن هذه الحقائق واضحة لا ريب فيها؛ فالناس متساوون، وقد وهبهم خالقهم بعض الحقوق الثابتة، ومن هذه الحقوق حق الحياة، والحرية، وتحقيق السعادة))، ذلك هو الأساس العميق للإيمان الديني والأخلاقي والسياسي، الذي يقوم عليه دستور الولايات المتحدة وحكومتها، ومع ذلك فإنه حتى عندما يقول الناس إنهم يعتقدون بوجود الله على أساس التسليم؛ فإننا نجد أن هذا التسليم لا بد أن يكون قائمًا على أساس معلومات سابقة، أو خبرة سابقة، أو تفكير سابق. فالتسليم بأي شيء لا يمكن أن يقوم إلا على أساس من المعرفة، والتفكير. فإذا قلنا إن وجود الله أمر واضح أو بديهى، فإن ذلك قد يعني أننا لا نستطيع أن نتناول الموضوع بطريقة علمية، أو منطقية، بسبب نقص في معلوماتنا، وتُشير معظم الأسباب إلى أنه لا بد أن يكون لهذا الكون من خالق، ولتلك القوانين من صائغ، وأنه لا يمكن أن تكون هنالك آلة بدون صانع."[39]

ثم يوضح " أندروكونواي " كيف أن الإيمان بوجود الله، يعتمد على الاستدلال المنطقي نفسه المستخدم في العلوم الطبيعية، حيث نجده يُبرهن على ذلك ؛ بل يستخدمه لإثبات بعض من صفات الله، حيث يقول:

" في علم وظائف الأعضاء تَدُل خياشيم الأسماك على أسبقية الماء، كما تدل أجنحة الطيور ورئات الإنسان على أسبقية الهواء، كما تدل الحياة على أسبقية القانون الطبيعي اللازم لنشأتها. وإني أتساءل الآن: أفلا يدل التدبر العميق، والتفكير الصافي على شيء سابق؟ إن من الحماقة الظن بأن أعمق الأفكار والعواطف، والأعمال التي نُشاهدها في الإنسان لا تدُل على شيء؛ إنها تدُل على أسبقية وجود عقل عُلُوي، وتدُل على وجود خالق يتجلى في خبرة أولئك الذين لا

[A] " توماس جفرسون - Thomas Jefferson "، (1743م – 1826م) هو أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، والكاتب الرئيس لإعلان الاستقلال(1776م) وثالث رئيس للولايات المتحدة (1801م – 1809م) و كان متحدث باسم الديمقراطية.

يضعون الحواجز في طريق عقولهم عند البحث عن العقل الأسمى، أو الخالق الأعلى، ويمكن باستخدام المنطق الوصول إلى أن لله صفات مُعينة، وفيما يلي مجموعة غير كاملة منها: الله أبدي، خالد، لطيف (ليس ماديًا)، ليس حادثًا، قدوس، طيب، يعلم الشر، ولكنه ليس شريرًا، ولا يريد الشر، لا يكره الأشياء، حق، عليم، مُحب، مُريد، مُنزه عن الشهوات والنزوات، أصل الفضائل.

وتتفق هذه الصفات إلى حدٍ كبير مع الصفات التي وردت عن الله في الإنجيل[A]، وبخاصة في العهد الجديد. ولكن معظم صفات الله التي وردت في الإنجيل، جاءت على أنها بديهيات، ولم تقدم على أساس منطقي."[40]

وأخيرًا يقدم لنا " أندروكونواي " خلاصة بحثه، فيما توصل إليه من أهمية الاعتقاد بوجود الله، لكي تستقيم حياة الإنسان، وفوائد الإيمان بالله لاستقرار حياة المؤمن، وكيفية تحقيقه لسعادة البشرية. وذلك حيث يقول: أن " للاعتقاد بوجود الله مزاياه الخالدة. وهنالك ثلاثة أسباب تجعلنا نعتقد بأن الإيمان بالله لا يُضَيّع أبدًا، وهي:

أولًا: أن النظام التربوي الذي يناسب كل الناس في سائر الأزمان يقوم على الإيمان. أما النظام التربوي الذي يقوم على الفلسفة الطبيعية، ويستهدف الصحة والمتعة، فإنه لا يناسب ذوي الأمراض المزمنة، والنظام التربوي الذي يقوم على الفلسفة البرجماتية لا يناسب غير القادرين عليه، وغير المتهيئين له. والتربية التي تقوم على الفلسفة الإنسانية لا تناسب من لديهم استعدادات ميكانيكية. أما التعليم الذي يقوم على الإيمان، وعلى الاعتبارات الدينية، فإنه يناسب سائر البشر على اختلافهم في الكليات، وفي الأسواق، وفي البيوت، والمستشفيات، وفي الأحياء الفقيرة، والسجون، وفي المعارك. إن الإيمان بالله يُولد قوة تَضمن لصاحبها ألا يحيق به ضرر مطلقًا. إن الدين من الوجهة البيولوجية يمكن تعريفه بأنه عبادة الإنسان لقوة عليا نتيجة لشعوره بحاجة في قرارة نفسه إلى هذه القوة، وإنه لمِن العسير أن تُكبت هذه الحاجة في معظم نفوس البشر.

ثانيًا: إن الاعتقاد في وجود الله ضروري لإكمال معني الحياة والكون. ولا شك أن العقلاء من الناس يبحثون دائمًا عن هذا المعنى.

ثالثًا: بصرف النظر عن الهجمات المتكررة التي تشنها العقول الضالة المرتبكة، أو العقول المنكرة؛ فإن الأطفال سوف يُولدون في المستقبل ما شاء لهم أن يولدوا، فالطفل قد حباه الله بالفطرة السليمة، والإخلاص، والأمل، والمحبة. ولعل ذلك هو الذي دعا عيسي عليه السلام إلى تمجيد الطفولة حيث يقول: (الأطفال هم الأمراء في مملكة الله) (إن الإنسان لا يستطيع أن يري مملكة الله إلا إذا ولد من جديدة) من أجل ذلك يحق لنا أن نستبشر خيرًا، {فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض}[B]، ولذلك فإن الإيمان الديني، والفكرة الدينية، وما لهما من أثر على الفرد والمجتمع، قد بقيا عاليين خفاقين على مر الأجيال."[41]

[A] الصفات التي وردت عن الله تعالى، أو أسماء الله الحسنى- في القرآن- تسع وتسعون صفة أواسمًا، هي الله لا إله إلا هو الحي القيوم، السلام المؤمن ....الخ. (التوضيح هنا للمؤلف).

[B] القرآن الكريم: من الآية 17 سورة الرعد.

7 - أما "بول كلارنس ابرسولد"[A] فقد كتب مقالًا بعنوان " الأدلة الطبيعية على وجود الله "، بدأه قائلًا: " منذ أكثر من ثلاثة قرون قال الفيلسوف الإنجليزي "فرنسيس بيكون": (إن قليلًا من الفلسفة يُقرب الإنسان من الإلحاد. أما التعمق في الفلسفة فيرُده إلى الدين). لقد كان " بيكون " على صواب فيما ذهب إليه، فلقد احتارت الملايين من الباحثين والمفكرين منذ وجد الإنسان على سطح الأرض في كنه العبقرية والتدبير الذي يتجلى في الإنسان، وفي هذا الوجود، وتساءلوا عما عساه أن يكون وراء هذه الحياة، ولا شك أن اتجاه الإنسان وتطلعه إلى البحث عن عقل أكبر من عقله، وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع؛ لكي يستعين به على تفسير هذا الكون، يُعد في ذاته دليلًا على وجود قوة أكبر وتدبير أعظم، هي قوة الله وتدبيره ".[42]

ثم بعد ذلك يستنتج " بول كلارنس"، ما يمكن أن نَعّدهُ تفنيدًا لنظرية الانفجار العظيم، التي يتذرع بها الملحدون لتفسير أصل الكون، لذا نجده يقول: " إن العلم والعقل الإنساني وحدهما لن يستطيعا أن يُفسرا لنا لماذا وجدت الذرات، والنجوم، والكواكب، والحياة، والإنسان بما أوتي من قدرة رائعة. وبرغم أن العلوم تستطيع أن تُقدّم لنا نظريات قيّمة عن السديم، ومولد المجرات، والنجوم، والذرات، وغيرها من العوالم الأخرى، فإنها لا تستطيع أن تبين لنا مصدر المادة والطاقة التي أُستُخدمت في بناء هذا الكون، أو لماذا اتخذ الكون صورته الحالية ونظامه الحالي، والحق أن التفكير المستقيم والاستدلال السليم يفرضان على عقولنا فكرة وجود الله. إن الأمر الذي نستطيع أن نثق به كل الثقة، هوأن الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشآ هكذا نشأة ذاتية من العدم المطلق؛ بل إن لهما بداية، ولابد لكل بداية من مُبدِئ، كما أننا نعرف أن هذا النظام الرائع المعقد الذي يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وأن معجزة الحياة في حد ذاتها لها بداية، كما أن وراءها توجيهًا وتدبيرًا خارج دائرة الإنسان. إنها بداية مقدسة، وتوجيه مقدس وتدبير إلهي مُحكم."[43]

ونظن أن هذا كاف تمامًا لدحض أي نظرية ظنية (كنظرية الانفجار العظيم) يحاول بها الملحدون أن يحيدوا عن الحق بترديدها دونما دليل على صدقها، ولم يكلفوا أنفسهم حتى عناء فحصها منطقيًا أو واقعيًا ليختبروا خلوها من التناقضات الداخلية، ومدى مطابقتها للواقع والمعطيات المحيطة بها.[44]

8- ولقد كتب " جورج ايرل دافيز "[B] مقالة بعنوان " الكشوف العلمية تُثبت وجود الله" بدأها بقوله: " كلما تقدم ركب العلم وتضاءلت الخرافات القديمة، ازداد تقدير الإنسان لمزايا الدين، والدراسات الدينية، وينبغي أن نفرق في هذا المقام بين معارضة الدين أو الخروج عليه وبين الإلحاد، وأن نعترف بأن من يخرج على بعض الأفكار التقليدية، التي ينطوي عليها دين من الأديان، لكي يؤمن بوجود إله قوي كبير، لا يجوز أن نعده بسبب ذلك وحده ملحدًا. فمثل هذا الشخص قد يكون غير معتنق لدين من الأديان، ولكنه يؤمن بالله، وقد يكون إيمانه بالله تعالي قائمًا على أساس متين. وليس معنى ذلك أننا نُنكر وجود الإلحاد والملحدين بين المشتغلين بدراسة العلوم، إلا أن الاعتقاد الشائع بأن الإلحاد منتشر بين رجال العلوم أكثر من انتشاره بين غيرهم لا يقوم على صحته دليل؛ بل إنه يتعارض مع ما نلاحظه فعلًا من شيوع الإيمان بين جمهرة المشتغلين بالعلوم."[45]

[A] أستاذ الطبيعة الحيوية المعاصر، حصل على الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا، ومدير قسم النظائر والطاقة الذرية في معامل " أوك ربدج"، وعضو جمعية الأبحاث النووية، والطبيعة الحيوية.

[B] عالم طبيعة أمريكي معاصر، حصل على الدكتوراه من جامعة منيسوتا، ورئيس قسم البحوث الذرية بالبحرية الأمريكية ببروكلين، وأخصائي في الإشعاع الشمسي، والبصريات الهندسية، والطبيعية.

ثم يُلّخص لنا خبرته الإيمانية التي استخلصها من الطبيعة، ليدحض بها مزاعم الملحدين، قائلًا: " لا يمكننا أن نثبت وجود الله عن طريق الالتجاء إلى الطرق المادية وحدها، إذ لم يقل أحد بأن الله مادة، حتى نستطيع أن نصل إليه بالطرق المادية. ولكننا نستطيع أن نتحقق من وجود الله باستخدام العقل والاستنباط مما نتعلمه ونراه؛ فالمنطق الذي نستطيع أن نأخذ به، والذي لا يمكن أن يتطرق إليه الشك، هو أنه ليس هنالك شيء مادي يستطيع أن يخلق نفسه. وإذا سلمنا بقدرة الكون على خلق نفسه (بحسب مزاعم الملحدين)، فإننا بذلك نصف الكون بالألوهية. ومعني ذلك أن نعترف بوجود إله، ولكننا نعتبره إلهًا ماديًا روحيًا في الوقت نفسه. وأنا أفضل أن أؤمن بإله غير مادي خالق لهذا الكون تظهر فيه آياته وتتجلي فيه أياديه، دون أن يكون هذا الكون كفؤًا له. وأضيف إلى هذا الاستدلال، استدلالًا آخر: وهو أنه كلما أرتقي وتَقدم تَطور المخلوقات، كان ذلك أشد دلالة على وجود خالق مُدبر وراء هذا الخلق. إن التطور الذي تكشف عنه العلوم في هذا الكون، هو ذاته شاهد على وجود الله. فمن جزئيات بسيطة ليس لها صورة معينة، وليس بينها فراغ نشأت ملايين من الكواكب، والنجوم، والعوالم المختلفة، لها صور معينة، وأعمار محددة تخضع لقوانين ثابتة يَعجَز العقل البشري عن الإحاطة بمدى إبداعها. وقد حملت كل ذرة من ذرات هذا الكون؛ بل كل ما دون الذرة، مما لا يُدركه حس ولا يَتَصور صغره عقل، قوانينها وسننها، وما ينبغي لها أن تقوم به، أو تخضع له؛ إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله، وإنها تدل على وجوده حتى دون حاجة إلى الاستدلال بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها."[46] وهذا يؤكد أن كل ما هو مادي يحتاج لخالق يمنحه وجوده، وبنفس المنطق يمكن لخالق المادة أن يكون موجودًا دون أن نسأل عن خالقه، لأنه ليس بمادي وليس بمخلوق (إنه الحي القيوم)، وليس كمثله شيء.

الخاتمة وأهم نتائج البحث وتوصياته:

1- أحادية المنظور للاتجاه الإنساني خصوصًا المنظور المادي - جعل أتباعه لا يرون في العالَم سوى الجانب المادي فقط، أو فلنقل جعلهم يُحولون الكون كله إلى مادة فقط، فأهملوا بذلك فهم ووظيفة كل من النظام، والعلاقات، والتشكُل، والأسباب، والمعنويات، والجوانب العقلية المتمثلة في الحكمة من وراء وجود المادة (أو الإنسان الذي يزعمون أنه أرقى ما تطورت إليه المادة)، أو إرادة وجودها من عدمه.

2 - في بداية البحث كان الظن أن جَهْر "لامونت" بالإلحاد جاء كضرورة منهجية، ولكن مع تفنيدنا لمزاعمه، وللنصوص، والفلاسفة، والعلماء الذين استشهد بهم، اتضح لنا أن الاتجاه الإنساني ما هو إلا دعوة إلحادية تستتر تحت قناع النزعة الإنسانية المتطرفة.

3 - كشفت مجريات البحث عن أن للاتجاه الإنساني واجهة هي الدعوة إلى أرقي القيم الإنسانية، حيث الأخلاق التي تحقق للإنسان سعادته الدنيوية، وحتى من هذه الوجهة نجد السبق والتفوق الساحق لهْو للعقائد السماوية. وهذا جاء واضحًا من اعترافات " لامونت " نفسه حين أراد بتحليله للعقيدة اليهودية (العهد القديم)، والعقيدة المسيحية (العهد الجديد) أن يفرغهما من أي محتوي مقدس – أو ميتافيزيقي بحسب زعمه - ليُظهرها على أنها مجرد دعوات أخلاقية (أو إنسانية) فقط، زاعمًا أنها تدعو للقيم السامية نفسها التي يدعو لها الاتجاه الإنساني، لدرجة جعلت " لامونت " يَزعُم أن رُسلهم ما كانوا سوى إنسانيون ضحوا بجهودهم وأنفسهم من أجل هداية

البشرية للأخلاق القويمة، وفي هذا المعني - ولكن على مستوي قدسي وإيماني بالعقيدة الإسلامية - نجد رسولنا " محمدًا " صلى الله عليه وسلم يقول: " إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق "[A]. وهذا ما لم يَفطن إليه " لامونت " حيث الجانب الأخلاقي هو أحد المقاصد الشرعية بما يحقق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، بما يَضمن للفرد -من خلال الإيمان بالعقيدة-سبيل تحقيق الرضا الكامل في التوسط بين الماديات والروحانيات، من خلال الضوابط السلوكية. ولا يفوتنا أن نُذّكر هنا بأن " الدين معاملة "، بدليل الآيات العديدة[B] التي تَحُثّ الناس على العدل، والإحسان، والخلق القويم.

4- كشف البحث عن عدم حيادية " لامونت " العلمية، بالرغم من تَذرعه بالنظريات العلمية، من خلال تفنيدنا لنظرية " داروين " التطورية التي يعدها الملحدون أساسًا جوهريًا لإلحادهم. هذا بالإضافة لتفنيدنا لجميع المزاعم الإلحادية بالأدلة العلمية، وشهادات علماء الأحياء، والفيزياء والمتخصصين في العلوم الطبيعية والكيمائية.

5- تناول البحث من الأدلة العلمية ما يدحض تمامًا احتمال أي وجود لعنصر المصادفة – وهو الدعامة الأساسية لفكرة الإلحاد - سواء في نشأة الكون، أوفي خلق ذراته وتكوين الخلايا الحيوية، والعضوية. وذلك من خلال تناولنا المُحايد لنتائج، وتحليلات العلماء المعاصرين في المجالات النووية، والبيولوجية، والكيميائية.

6 - ليس هناك أي دليل يَدعم الإلحاد - سوى الأوهام، والمغالطات، والاستنتاجات الخاطئة - على العكس من الإيمان الذي تَدعَمهُ نتائج العلم، وتؤكده الاستدلالات العقلية في تأملها للكون، ونظامه، وتنوع مخلوقاته، والحكمة من وجود الموجودات، وعلاقاتها السببية.

7- مازال موضوع البحث يحتاج للعديد من جهود علماء الاجتماع، وعلماء النفس؛ للوقوف على الأسباب الحقيقة لانتشار ظاهرة الإلحاد شرقًا وغربًا، وكأنها ثقافة عصر، في الوقت الذي تتوجه فيه الجهود الدولية شرقًا وغربًا، لمعالجة الآثار الضارة بالحضارة البشرية من جرّاء ظاهرة الفقد العقدي (افتقاد الإنسان المعاصر للجوانب الإيمانية والعقائدية).

8 - من ضمن المشكلات التي أثارها البحث، طبيعة العلاقة بين مساهمات كل من العقل والاعتقاد، في بناء المعرفة الإنسانية، خصوصًا بعدما أثبتنا أهمية دور الاعتقاد في بناء معارفنا، التي يُركبها العقل كصور ذهنية، سواء عن العالم أوعن أنفسنا. وهذا يفتح المجال العلمي للبحث من جديد في حقيقة، وكيفية تكوين العقل الإنساني للمعرفة، ومدى اعتماد الوعي الإنساني على الاعتقاد كطريق ضروري لوثوق العقل بمعارفه. فحتى التفكير العلمي يبدأ بالمسلمات أو البديهيات، كمقدمات يعتقد تمامًا بصدقها. حتى حساب الاحتمالات يعتمد على فرض نعتقد بصحته لكونه الأكثر احتمالا، فكيف يمكننا أن نستنتج -كما زعم " لامونت "-أن العلم ينفي العقيدة أو يستوجب الإلحاد؟

9- أثبتت نتائج بحثنًا - بما لا يدع مجالًا للشك - أن الإلحاد ليس بعقيدة - كما زعم " لامونت " ودعا لانتشاره كعقيدة مثالية للإنسانية - تحتمها العقلانية (لأن نفي العقيدة ليس بعقيدة)؛ بل

[A] (حديث نبوي صحيح).

[B] فعلى سبيل المثال لا الحصر، نجد في القرآن الكريم قوله تعالى: (**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**) آية 90 سورة النحل.

بالعكس أتت العقلانية ونتائج العلم المعاصر بما يؤكد على حقيقة وجود الله، مما يستوجب التصديق بالعقائد الدينية.

10- قد يكون لانتشار الميتافيزيقا المعاصرة، انعكاسات داعمة للحقائق الإيمانية كضرورة إنسانية، هادمة لأي نزعة إلحادية؛ لأن الإلحاد ضد الطبيعة الإنسانية.

11 - ما يزال يحتاج موضوع بحثنا لجهود عديدة أخري في مجالات أخري للكشف عن نتائج مواجهات دعوة الإلحاد مع الرغبة المتنامية غربًا للعودة للعقائد الدينية بعد تمحيصها، وتنقيتها من شوائب الميتافيزيقية غير المبرهنة، وأبحاث نفسية تقنن تأثير موجات الإلحاد على الجيل الحالي ونتائجها المستقبلية على الأجيال القادمة، وأبحاث أخري لرصد وكشف المتطلبات الحقيقية للحضارة الإنسانية، لوضع حد بين مد أمواج الإلحاد التي تصارع لهدم إيمان الإنسانية بمشروعها الوجودي، أي بسبب وجود الإنسانية، والحكمة من خلقها، ودورها الحضاري في عمارة الكون للرقي الإنساني سلوكيًا، وعلميًا، وماديًا، ومعنويًا في شمول تتكامل خلاله جميع الجوانب الإنسانية.

12 - الحاجة إلى أبحاث تربوية متخصصة في تحديد سُبل تلافي تأثير دعوة الإلحاد سواء على مستقبل الإنسانية القريب، أو على مستقبل الأجيال المقبلة. بأن تُحدد لنا آليات وقف نزوح المد الإلحادي. فهل يفيد ويكفي الحوار، والنقد، والتفنيد مع الأدلة العقلية، وشهادات علماء الطبيعة، والحياة، والكيمياء الحيوية والفلك؟

قائمة المصادر والمراجع:

أولًا : المصادر.

1- Corliss Lamont: “ The Philosophy Of Humanism ” Half-Moon Foundation, INC,New York, Humanist Press, 1997.

2 - Friedrich Nietzsche,: Thus Spoke Zarathustra , translated by Graham Parkes, Oxford: Oxford World's Classics, 2005.

3 - Henri Bergson: “creative evolution”, Translated by Arthur Mitchell, Edited by Keith Ansell Pearson, Michael Kolman, Micheal Vaughan, With an Introduction by Keith Ansell Pearson, New York, 2007.

4- Henri Bergson: “ The Tow Sources of Morality and Religion’’, translated by R. Ashley Audra and Cloudesley Breretqn with the Assistance of W. Horsfall Carter Macmillan and Co., Limited, London, 1935.

5 - John Dewey: The Political Writings, edited, with an introduction, by Debra Morris and Ian Shapiro (Indianapolis: Hackett, 1993).

ثانيًا: المراجع الأجنبية.

6 - Davis, Paul ."God & The New Physics " , London, Touchstone Book, 1983.

7 - Forty American Scientists,:" The Evidence of God in an Expanding Universe", Editor, John Clover Monsma , G. P. Putnam's Sons, USA,1958.

ثالثًا: المراجع العربية.

8 - إ . م . بوشنسكي : " الفلسفة المعاصرة في أوروبا " ترجمة، عزت قرني، سلسلة عامل المعرفة، عدد (165)،سبتمبر 1992م.

9 - عبد الرحمن حسن الميداني : " صراع مع الملاحدة حتى العظم " دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة،1992م .

رابعًا: المواقع الالكترونية .

10 - https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D9%82%D8%AF_%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B7%D9%88%D8%B1

في تاريخ 25 - يناير– 2017

---

[1] معجم المعاني الجامع، والوسيط، باب ألحد،(See Bauer, Walter. Greek- English Lexicon. 2nd edition. Chicago: Universty of Chicago. (Press, 1979. P.20

[2] CORLISS LAMONT: " THE PHILOSOPHY OF HUMANISM " HALF-MOON FOUNDATION, INC,New York, Humanist Press, 1997 , pp 33 - 45.

[3] عبد الرحمن حسن الميدانى : " صراع مع الملاحدة حتى العظم " دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة، 1992م، ص 207، 208

[4] Ibid. CORLISS LAMONT: " THE PHILOSOPHY OF HUMANISM ", ,

[5] Ibid. CORLISS LAMONT: " THE PHILOSOPHY OF HUMANISM ", ,

[6] إ . م . بوشنسكى : " الفلسفة المعاصرة فى أوروبا " ترجمة، عزت قرنى، سلسلة عامل المعرفة، عدد (165)، سبتمبر 1992م، ص (149 – 150) .

[7] CORLISS LAMONT: " THE PHILOSOPHY OF HUMANISM ", ,p 39.

[8] Ibid.

[9] عن موقع (https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D9%82%D8%AF_%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B7%D9%88%D8%B1) فى تاريخ 25 – يناير - 2016.

[10] CORLISS LAMONT: " THE PHILOSOPHY OF HUMANISM ",p 39, 40.

[11] CORLISS LAMONT: " THE PHILOSOPHY OF HUMANISM ", p 39, 40.

[12] CORLISS LAMONT: " THE PHILOSOPHY OF HUMANISM ",p 40,41.

[13] John Dewey: The Political Writings, edited, with an introduction, by Debra Morris and Ian Shapiro (Indianapolis: Hackett, 1993),p 105.

[14] CORLISS LAMONT: " THE PHILOSOPHY OF HUMANISM ",p 42 - 50.

[15] CORLISS LAMONT: " THE PHILOSOPHY OF HUMANISM ",p 53 – 54.

[16] CORLISS LAMONT: " THE PHILOSOPHY OF HUMANISM ",p 54 – 55.

[17] CORLISS LAMONT: " THE PHILOSOPHY OF HUMANISM ",p 56.
[18] Ibid,p57-58.
[19] Friedrich Nietzsche,: Thus Spoke Zarathustra , translated by Graham Parkes, Oxford: Oxford World's Classics, 2005.

[20] Henri Bergson: "creative evolution", Translated by Arthur Mitchell, Edited by Keith Ansell Pearson, Michael Kolman, Micheal Vaughan, With an Introduction by Keith Ansell Pearson, New York, 2007.
[21] HENRI BERGSON:" THE TWO SOURCES OF MORALITY AND RELIGION",TRANSLATED BY R. ASHLEY AUDRA AND CLOUDESLEY BRERETQN WITH THE ASSISTANCE OF W. HORSFALL CARTER MACMILLAN AND CO., LIMITED, LONDON,1935,chapter 3.
[22] Ibid,p 225.
[23] " Forty American Scientists Declare Their Affirmative Views on Religion: "The Evidence of God in an Expanding Universe "edit, John Clover Monsma , G. P. Putnam's Sons; Fifth or Later Edition edition (1958), p 125 – 131.
[24] Ibid:, John Cleveland Cothran,: " inescapable conclusion" , p,37 – 42.
[25] Ibid.
[26] Ibid.
[27] "The Evidence of God in an Expanding Universe ", John Cleveland Cothran,: " inescapable conclusion" , p,37 – 42.
[28] Ibid.
[29] Ibid.
[30] Ibid.
[31] " The Evidence of God in an Expanding Universe ", John Cleveland Cothran,: " inescapable conclusion" , p,37 – 42.
[32] "The Evidence of God in an Expanding Universe ", Donald Robert Carr:" Geological directives ", p, 132 – 136.
[33] Ibid, Claude M. Hathaway,: " The great designer ",p, 143 – 146.
[34] Ibid.
[35] Ibid.
[36] "The Evidence of God in an Expanding Universe",: Edwin Fast:" A look behind the "Natural laws" ",p,152 – 155.

[37] Ibid.
[38] "The Evidence of God in an Expanding Universe", Andrew Conway Ivy:" The absoluteness of the certainty of God's existence, an epilogue ",p, 224 – 239.
[39] Ibid, p 226 - 227.
[40] Ibid, p 229 – 232.
[41] Ibid, p 238 – 239.
[42] " The Evidence of God in an Expanding Universe", Paul Clarence Aebersold: " Physical evidences of God ", p 59 – 60.
[43] Ibid, p 61 – 62.
[44] Davis, Paul ."God & The New Physics " , London, Touchstone Book, 1983.p102.
[45] " The Evidence of God in an Expanding Universe ",George Earl Davis : " Scientific revelations point to a god ",p 69 .
[46] Ibid, p 70 – 72.